طـه يـاســـين

عيون الأمل

حتى تكون أسعد الناس..

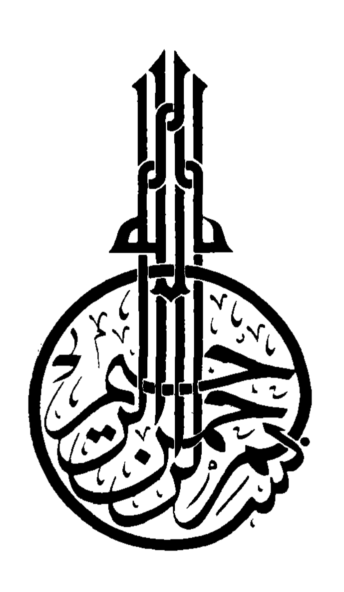

حتى تكون أسعد الناس..

الطَّبعَة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

حُقوق الطَّبع محفوظَة

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

إهـــداء

* إلى هؤلاء القابعين على صخرة الهزيمة، عند غروب شمس الأحلام، أمام بحرٍ تتراءى في أمواجه الحظوظ المندوبة، والانكسارات المرّة، والذكريات المؤلمة.
* إلى الذين عفَّرَتْ خدودهم الكآبة، وأحزنت قلوبهم الهموم المقبضة، ورحلت أمامهم الآمال، تتبعها عيونٌ مليئةٌ بالدموع، وأيادٍ تلوّح بالوداع.
* إلى الذين فشلوا؛ لأنهم تحدّوُا الحياة بالكبر والمال والنساء، بدلاً من أن يتحدَّوها بالتواضع والأمل والإيمان.
* إلى كلِّ قلب حزين بائس، اشترى الناسُ طيبته وحنانه، ثم باعوه سكيناً مسموماً، اندسّ في أعماقه، فتمثلت له الحياة كابوساً فظيعاً، لا يصحو عليه فيغيب عن وجهه، ولا يختنق بين أشباحه فيموت في حينه.
* إلى كل من ورَد على عقله خاطر اليأس فخدّره...
* إلى كل من تسلَّل إلى قلبه شعور البؤس فآلمه...
* إلى كل هؤلاء أقدّم باقتي المختلفة الألوان، المتنوعة الطيوب، عسى أن يرَوا في سحرِ ورودها طيفاً خلّاباً؛ يغيّر وجهَ الحياة..

عسى أن يشمُّوا في عبيرها رائحةَ أملٍ؛ تنعش روحَ الحياة..

❃ ❃ ❃

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يبقى ولا يزول، ويخلُد ولا يؤول، والصلاة والسلام على محمد الرسول، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يومِ النشور.

أما بعد: بين يديك كتاب يدعوك إلى المسير بدلاً من النوم على حافة الطريق، ويهيب بك أن تحاول ثم تحاول بدلاً من أن تنوح على ماضٍ ذاهب، أو تبني قصوراً من أوهام على شفا مستقبلٍ غائب.

إنّه دعوة صارخة إلى كلّ إنسانٍ حالَ اليأس بينه وبين آماله، فأقعده بعد مسير، وعَقلَه بعد نشاط؛ أن يستبشر ولا ينفر، وأن يعزم على المضيّ قدماً ويصبر، فالحزن لا يردُّ ميتاً، والعبوس لا يُحيي أملاً.

هذا الكتاب نداءٌ سماويّ أرضيّ أنِ ابْدَأْ ولا تتوقفْ، وعش يومك وأنت كريمٌ عزيز، ولا تندم على شيءٍ مضى وفات، ولا تخف مستقبلاً لم يأتِ بعد، نداءٌ يوجِّهُك إلى محراب قلبك، تمسح عنه ران الإحباط والكسل بأريج التفاؤل والأمل.

(عيون الأمل): كتابٌ يبعث في النفس بوارقَ الحياة السعيدة، فيرى صاحبُها في حفيف أوراق الخريف نغماً يبشر بربيعٍ آتٍ، وفي غروب الشمس إشراقاً لفجر جديد، ويقرأ في قطراتِ عرقه ـ وهو يتجشّم صعود الجبل ـ سطورَ المجد في أعلى القمة.

(عيون الأمل): ينصحك من مكانٍ قريبٍ من نياط قلبك، ومن أعماق روحك، أنْ تثقَ بنفسك، وتسير مع فطرة حياتك، من دون أنْ تعلنَ الحربَ عليها فتُهزَم، وألّا تشاكسَ القضاء والقدر، وترفضَ الحقَّ الذي وصلْتَ إليه فتندم.

هذا الكتاب، أرادَ صاحبه أن تقرأه قراءةً تردّ عليك النفع والسعادة، وتحوّل وجهك عن أكدار العمر وغصص الحياة، لا قراءةً تتربَّصُ بها مواطن النقص والزلل، ناسياً أنّ صاحبه بشرٌ يخطئ ويصيب، مع أن لك ولغيرك أن تحاكمَ هذا الكتاب للمنطق والعقل، قبل أن تحاكمه للأدلة والنقل.

ولن أنسى أنْ ألفِتَ الانتباه إلى النقاط الآتية:

١ ـ هذا الكتاب متنفّس طلْق، يمكنُ أن يتعلَّلَ بنسيمه المسلم وغيره، فهو مكتوبٌ بلغةٍ ميسّرة، يفهمها المختصون وغيرهم، فهو ليس وقفاً لجيلٍ معيّن، أو بلد مقصود بذاته، بل هو خطاب لكل إنسان ينشد العيشَ الرضي الهنيء.

٢ ـ استشهدْتُ بأدلة من القرآن والسُّنَّة إلى جانب أمثال وقصص وأشعار وأقوال، قطفتها من بستان الحكماء والأدباء الشرقيين والغربيين.

٣ ـ ابتعدْتُ في تقسيم الكتاب عن الطريقة الأكاديمية، وآثرت أن أُفصّل

كلَّ عنوانٍ عام بصحائفَ معدودة، تتخلَّلها عناوينُ فرعية، متأسّياً بمن سبقني في ذلك.

٤ ـ قد أنقل النصَّ بدقة أحياناً، وأحياناً أخرى بتصرف، ذاكراً المصدر.

وأخيراً.. اللّهمّ وحدَك أسأل، أن تقبل هذا العمل على نقائصه، وهذا الجهد على قلّته، وأسألك أن تبعث فيه نعيماً يسير من عين القارئ إلى قلبه، فأنت المعبود بحق، المتفضّل على الخلق.

كتبه

طه ياسين

عين منين ـ دمشق

الفصل الأول

تحرَّرْ من اليأس

- داء اليأس
- أليس الصبح بقريب؟!
- عيون الأمل

* * *

داء اليأس

ما أكثر ما يتسلّل هذا الدّاء إلى جراحات قد اندملت فيكلمُها، وإلى آهات قد خرجت فيجددها، بيتُه القلب، وجنوده الأوهام، وضحاياه الكُسَالى الخانعون؛ الذين انطوَوا على أنفسهم، واستوطنوا النُّزل الضيِّق بدَلَ الرحيب، وحرموا أنفسهم من رَوح الله ـ أيّ الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيسترْوِح بها، كالنسمة الباردة تُنْعِشُ مَنْ كواه حرُّ الهجيرة ـ يقول الواحدُ منهم: يا أسفىٰ ويا حسرتىٰ، كم فكّرْتُ، وكم حاولْتُ، لكنَّني عدْتُ بخفّي حُنين، إنّه يجترُّ الحيف والندم، وربُّه يحذّره من هذا الاجترار في محكم التنزيل: ﴿وَلَا تَأْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

اليائس إنسانٌ عاجز، ليسَ بالكيّس، هو تماماً كما وصفه رسول الله ﷺ: «**الكيِّس مَن دان نفسه، وعمل لما بعدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله**» [الترمذي (٣٨٣٢)] فحياته ـ كما يراها ـ جناية ما مثلها جناية، جمالها قبح، وأبيضها أسود، ونصرها هزيمة، وضحكتها غصّة، فهو مسجون وراء قضبانها، يكتنفه الضجر والقلق، وتلومه أصواتٌ تخرج من داخل نفسه، تشعره بأنه تافه فاشل، وكأنّ لسان حاله يقول:

فثوبي مثل شَعري مثل حظِّيَ   سوادٌ في سوادٍ في سوادِ

ثم، إنّ خطر هذا الداء لا يتوقف عند إتعابِ القلب والروح، بل

يتسلل إلى الجسم فيرهقه، فقد تفقدُ العينُ لذّةَ النوم، وتعاف المعدة لذيذ الطعام، وقد ينخفض وزن الجسم، ويتحوّل الوجه الطافح بالحياة إلى وجه مكتئب ذابل، ويصبح ما قاله الشاعر حقيقةً في حياته:

والهمّ يخترم الجسيمَ نحافةً ويُشيب ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِم

إنّه (اليأس)؛ احذرِ الوقوع في شباكه، والغرق في بحره، وابتعدْ عنه ما استطعْتَ إلى ذلك سبيلاً، واعلم: أنّ هذا الداء لا يدخل إلّا إلى القلوب الميتة، ولا يعيش إلّا على أنقاض النفوس المحطمة، فلا تكن ملاذاً له، وابْنِ قلباً حيّاً ينبض بالإيمان والأمل، ونفساً تتغلب على صعاب الحياة بالثبات وصالح العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

❁ ❁ ❁

أليس الصبح بقريب؟!

واقعٌ نعيشه كلّ يوم، وكل شهر، وكل سنة، لكنْ قليل منَ الناس يعتبرون، ويصبرون ويقتنعون، في أحلك ظلمات الليل تنبلج أنفاس الصباح، قال الله تعالى في محكم بيانه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] إذاً.. مَنْ يستحقُّ في هذه الدّنيا الراحلة أنْ نيئسَ ونكتئبَ من أجله، وأن نبكيَ ونجزعَ على فواته؟!.. وإنْ يئسْنَا وبكيْنا فهل سيرْجِع الميّت حيّاً، والفائت مستقبلاً؟! ثم ما قيمة النحيب في سواد الليل إذا كان سيشرق ضوء الشمس وينقشع ظلام الليل عما قليل، كما قال الشاعر:

فما هي إلا ساعةٌ ثمَّ تنقضي ويَحمدُ غبَّ السير من هو سائرُ

لن تعيش في هذه الدنيا إلّا مرةً واحدة، واليوم الذي مرّ بك لن يتكرّرَ أبداً، وليس لك إلّا الساعة التي أنتِ فيها، وصدق من قال فيك:

وما لي بعدَ هذا العيشِ عيشٌ ومَا لِي بعدَ هذا الرَّأسِ راسُ

تعال معي، نفرح بما عندنا بدلاً مِن أنْ نبكيَ على ما ينقصنا، ونسعد بما يَفد علينا من النعم بدلاً من أن نأسى على ما يفوتنا، تعال أذكّرك بأنّ المصائب مهما تعاظمت فلابدّ أن تزول، وأنّ قطارَ الحياة مهما طالَ وقوفه في محطة الأكدار فلا بد أن يسير، وما عليك إلا أن تدع المقادير لمدبّرها، وتشقَّ طريقك بسيف الثقة والاطمئنان، وتستمع إلى مَن يقول:

دعِ المقاديرَ تجري في أعنّتها ولا تبيتنّ إلّا خاليَ البالِ
ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهَتِها يغيِّرُ اللّه من حالٍ إلى حالِ

وما عليك إلا أنِ تكفكفَ دموعك وتبتسمَ، ثم تستقبل الحياة استقبالَ الشجاع المقدام، لا الحذر الجبان، فإنّ الفتح مبين، والفرج قريب، والنصر آتٍ، وإياك واليأس، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]، وقال تعالى في مكان آخر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، أي: إنّ مع كل عسرٍ يسرين ـ لأن تكرار المعرفة (العسر) لا يفيد إلا معنى واحداً ـ وقد ورد عن ابن مسعود هذه المقولة الباسمة تلقاء وجوه البائسين: «لو أنّ العسر دخل في جحر لَجَاءَ اليسرُ حتى دخل معه».

الحياة لنا كلّها، لماذا لا نعيش فيها لحظةً فلحظةً؟!.. لماذا نُجلُّ ألمها ومرارتها ونبخس فرحها وبهجتها؟!.. لماذا تطول شكوانا ويقول القائل فينا:

كلّ من لاقيتُ يشكو دهرَه ليت شِعري هذه الدنيا لمن؟

❊ ❊ ❊

عيون الأمل

ما أجمل الحياة في أعين ذوي الهمم الطامحين! وما أتعسها في أعين المنعزلين والمتشائمين!.. فالأوّلون ينظرون إلى أغصان الأشجار العارية، فيتصوّرون براعمَ زاهرةً ستنبثق منها عما قريب، وينظرون إلى جفاف السهول والآكام، فيتصورن ثوباً عشبيّاً أخضرَ ستلبسه الأرض عما قريب، هؤلاء ينظرون إلى الحياة بعيون الأمل، فيتأملون في النصف المملوء من الكأس، ويشعلون شموعاً بدلاً من أن يلعنوا الظلام ألف مرة.

أمّا الآخرون، فهم هُجَّع قعود، ينظرون إلى الأزهار فيتصورونها أشواكاً تدمي الأيادي، وينظرون إلى أمواج البحر فيتصورونها رسائل خداع؛ تفتح يديها للقادم ثم تخنقه في مائها، هؤلاء ينظرون إلى نصف الكأس الفارغ فيغتمون، هم اليائسون الذين قال فيهم ربُّهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣] إنّهم عجزة الحياة، ضعاف الناس، رضوا بالعيش كالثعالب التي تقتات على فضلات الأُسود، فلا أمل يدفعهم لتحدّي الصعاب، ولا صوتَ عنفوانيّاً يوقظُهم من يأسهم؛ هؤلاء انكسروا من الصدمة الأولى، وفشلوا من التّجربة الأولى، حتى قال قائلهم:

شطّ المزارُ بـ (جدوى) وانتهى الأملُ
فلا خيالٌ ولا عهدٌ ولا طللُ

فشمسهم لن تشرقَ أبداً، وليلهم مخيّم بسواده أبداً، وقلوبهم لن تحيا أبداً، لعمري ما رأيت خلقاً أتعس منهم!.

عش حياتك أملاً نحو الحق، وسلّماً نحو التحديات، ولا تقعد مع الذين رضوا بالقعود، وتجشّم صعود الجبل، فالموت على ظهره من عناء الصعود خير من الحياة الخسيسة على حافات المستنقع النتن، واسمع لنداء هذا الشاعر:

إذا ما طمحْتُ إلى غايةٍ لبِسْتُ المنى وخلعْتُ الحَذَرْ
ومن يتهيّبْ صعودَ الجبالِ يعش أبدَ الدَّهْرِ بين الحُفَرْ

كن كتلك البذرة التي تحدّت الرغام الذي طمرها، فاخترقته بكل ثقة لتصافح وجهَ الشمس، زهرةً بهيجةً، تعالت على الماء الآسن والحمأ المسنون.

إنّ الأمل في حياتنا، كقطرات الزيت في حركة الآلات، فهي تحتاج إليها لتحافظ على مرونتها بلا احتكاك، والإنسان أيضاً يحتاج إلى الأمل؛ حتى يسيرَ في فِجاج الحياة سيرَ الواثق المطمئن، حتى يسعى إلى غايته سعيَ المشتاق والمحب.

إنّ الوسائل التي بها تحقّق آمالك، هي نفسك ووقتك وحريتك، هِبَاتٌ وهبك الله إياها، يهون أمامها الصعب، ويلين معها الحديد لو أنك اغتنمتها، وحاذرْ أن تعتمد في سعيك على مالٍ وعدك به بخيل، أو منصبٍ أمَّلك به لئيم، أو عزٍّ تنتظره من عبدٍ مثلك، فهؤلاء جميعاً يضرونك، ويعرفون أنك طامعٌ فيما عندهم فيخدعونك، فالعزُّ عند ربك وليس عندهم، كما قال جل وعلا: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، إنْ تعززت بعزّ يفنى مات عزّك، وإنْ تعززت بعزّ

يبقى دام عزّك، واعلم أنك عزيزٌ بقدر ذُلِّك لله، قال الشاعر:

تذللْ لمن تهوى لتكسبَ عزّةً فكم عزّةٍ قد نالها المرءُ بالذّلِّ

وقال عمر رضي الله عنه: «إنّا قومٌ أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزة بغيره».

وأخيراً، كل ما تراه من جمال، فهو لك، تمتّع به كما أباح لك الجميل الذي يحبّ الجمال، القائل في قرآنه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وإلّا فما قيمة الحدائق البهيجة والأنهار النميرة، إنْ لم تستمتع بها العيون، وتقرأ في صفحتها كلام السائرين من غير مللٍ أوِ كلل، ما قيمتها إنْ لم تبتسم لها الشفاه، وتردد مع بلابلها أنشودة الخُطا والمسير....

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

الماضي ولّى ولن يعود

- لا تبكِ على ما فات
- «لو.. ليت.. لولا» أحرف يأس، لا تستعملها
- التوبة.. أول خُطا السعادة

✽ ✽ ✽

لا تبكِ على ما فات

إنَّ البكاء على ماضٍ بائس ماتَ ولن يعود إلى الحياة، والتألم على فُرَصهِ التي مرّت من غير أن تُستغلَّ وتُستثمر، والعيش مع مآسيه وأحزانه؛ لهو حمقٌ وغباء.

أجل، إنّ حمقى الناس وأغبياءَهم، هم الذين يفتحون ملفّ الماضي بعد أن طوَوْهُ، ثمّ يتصفحونه سطراً سطراً، ليحيوه بعد أن مات، ويوقظوه بعد أن نام، ثم لا يلبث يجرُّ لهم الذكريات المؤلمة، والغصص القابضة ليجرّعهم مرارَها، ويكويهم بنارها.

مثَلُ الذي يسترجع الماضي، كمثل الذي يحفر القبور لِيُخْرِجَ أهلها، ويتوسّل إلى الشمس أن تبقى في كبد السماء ولا تغيب، ويدفع مياه النهر بيديه لتعود إلى منبعها، وهيهات.. هيهات أنْ يشفق على حاله أحد، فكلٌّ مضى إلى غايته، ولن يردّ عليه أحد، فهو أسيرٌ لا يستطيع أن يتجاوز الآلام الماضية، ضيَّع وقته، وهَدَر طاقته، وجرّ الماضي إليه ليجثم على صدره، ويشد عليه الخناق، فهو وحده يتحمل جريرة فعله، فهو الذي أعاد قصة أمسه الفائت، واستغرق فيها، وهذا مما حذّر منه القرآن الكريم، قال جل وعلا في محكم بيانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ما أبخل ذلك الأمس المنصرم وألأمه!.. فكلما مددت يدك لتمسك

حوادثه المدبرة، فتغيّر فيها ما تريد، وتحوّرها إلى ما تشتهي وتحب، فاجأك بلسعة سامّة، أعادتك إلى يومك الحاضر، عودةً غير محمودة؛ لأنها عودة يأسٍ واكتئاب.

والسؤال المطروح، ماذا ستجني البصيرة من ارتداد البصر، وهو يشرئبّ إلى زمنٍ قد ولّى، ومكانٍ قد اندثر؟!.. لن تجني إلّا الملامة والحسرة، وليت هؤلاء الذين ينظرون إلى الوراء، وهم يسيرون وسط زحام غفير يندفع زاحفاً إلى الأمام، ليتَهم يلتفتون إلى حاضرهم، وينسون ماضيهم الحزين؛ الذي يمتد إلى أفكارهم فيعكّرها، وإلى قلوبهم فيوجعها، ليتَهم يتخلّصون من رائحة الأفكار المتعفّنة في أذهانهم، فالمدن تبذل جهوداً كبيرةً للتخلّص من نفاياتها، أمّا نحن فما بالنا نضيق ذرعاً بالتخلُّص من نفايات ماضينا التي تتكّدس في أذهاننا بسبب التردّد والكسل، وبفعل اليأس والتبرم بالحياة.

وقف مدرس الصحة بكلية (جورج واشنطون) الدكتور (بول براندوين) أمام طلّابه، وأمامه زجاجة مملوءة باللَّبن، كان قد أحضرها معه، وبعد أن تعلّقت الأبصار بهذه الزجاجة، ضربها المدرس بظهر يده، فإذا هي تتحطّم على الأرض ويراق منها اللّبن، عندها صاح الدكتور (براندوين): لا يبكِ أحدكم على اللبن المراق!.. ثم دعا طلّابه واحداً واحداً وهو يقول له: انظر جيداً، إنني أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك، لقد ذهب اللبن وابتلعته الأرض، فمهما تشدُّ شعرك، وتسمح للهمّ والنّكد أن يمسكا بخناقك؛ فلن تستعيد منه قطرةً واحدة[١].

لقد أحسن هذا المدرّس تجسيد مشهدٍ سيبقى عالقاً في أذهان طلابه

(١) انظر: دع القلق وابدأ الحياة، لديل كارنيجي، ص١٧٠ ـ ١٧١.

مدى الحياة، لأنّه من المحال إعادة اللبن الذي شربته الأرض إلى القارورة.

احذر أن تبقى مطرِقاً متحسّراً أمام لبن الماضي المراق، فإن بقاءَك أمام هذا المشهد الحزين، إشعارٌ بالألم والحيف، ومدعاة للتشاؤم والإحباط، وتقييدٌ بسلاسل غِلاظ في زمن يتحرك فوق عجلات تسير، واعتبر بقول مولاك جلّ وعلا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

❁ ❁ ❁

«لو.. ليت.. لولا» أحرف يأس، لا تستعملها

هذه الأحرف؛ هي أبوابٌ قد غلّقْتَها وراءك وأنت تسير إلى الأمام، فلِمَ تعود إليها وتفتحها؟! هل تحسب أنّ الرجوع إلى تلك الأبواب وفتحها سيعود عليك بخير؟.. أبداً، بل على العكس، ستفتح لك هذه الأبواب أحزاناً كانت منسيّة، أو تنكأ جروحاً كانت ملتئمة، أو تشعل في صدرك زفراتٍ كاويةً كانت باردةً هامدة، هذا كله من جريرة هذه الأبواب (لو، ليت، لولا).

لقد قدّم الإسلام للبشرية دواءً يشفي الروح المعذّبة قبل أن يشفي الجسد السقيم، فجاء في الحديث: «**واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَرُ اللهِ وما شاء فعل، فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان**» [مسلم (٤٨١٦)].

إنّ هذا الدواء؛ دعوةٌ إلى النهوض والأمل بدلاً من العجز والكسل، إنه تحذيرٌ صارخ من التلفّظ بحروف اليأس، وذلك لأنها مفاتيح للسخط على القدر، وعدم الرضا واليقين، فهي ألفاظ المترددين المنافقين؛ الذين قال فيهم ربُّ العزة في قرآنه الكريم: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

(لو، ليت، لولا)؛ من شأنها أن تفعل بالنفوس ما يفعله عود الثقاب

المشتعل بالهشيم المنبسط، فكما تلتهم النيران ـ التي خلّفها ـ كلَّ أخضرٍ ويابسٍ تجده بطريقها كذلك تمتد هذه الحروف في مساحة الماضي الميت فتنبشه، ثم تولّد حالةً نفسية مقلقة، ينظر صاحب هذه الحالة إلى نفسه بعين الحيف والحسرة، إلى مرآة لا تُظهر على صفحتها إلّا رجلاً فاشلاً كئيباً.

يا ترى!! ما قيمة أن نلطمَ خدودنا ونشق جيوبنا على فرصةٍ قد فاتت أو صفقة قد خسرت؟! ما قيمة أن نتأوه بـ (لو وليت ولولا) فنجتر أحداثاً قد مرّت وانقضت، وأكل عليها الزمن وشرب، ثم نزداد حرقةً عليها ولوعة؟!.

(لو، ليت، لولا): ألفاظُ الآيسين، الذين خالفوا سنّة الحياة، وعاندوا قوانين الكون، يقول الواحد منهم ويده على خدّه: (لو فعلت كذا لتغيّر الموقف.. ليتني انتظرت قليلاً.. لولا ذلك الرجل...) إنها أماني قد غربت شمسها، وعسعس ليلها، وإنّ محاولة استرجاعها هي محاولة إعادة الصبي البالغ إلى حضن أمه يلقم ثديها، ومحاولة إعادة الماء الذي أُهريق إلى القارورة التي كان فيها، إنها عين الحماقة؛ يُستدعى الحزن من رقدته ليلذع القلوب فيوجعها، ويطرق زجاج العيون فيدمعها.

الخيرُ، كلُّ الخير، في استئناف المسير بجدٍّ وهمة، نعلّق عيوننا بالقادم ونصرف أذهاننا عن الفائت، نحذر تلك الأحرف التي تفتح عمل الشيطان؛ الذي يثير غبار الأمس، ليعمي به بصائرنا، فنضل الطريق.

لا تحرق أعصابك، وتضيع وقتك، وأنت تندب حظّك، وتبعث آهاتك على أطلال ماضٍ قد اندرس، بل استأْنِفْ رحلتك مهما واجهْتَ من عناءٍ وصعوبة، وانطلقْ بنفسٍ مفعمةٍ بالأمل والتفاؤل، دون أن تلتفت إلى الوراء وتقول: (لو.. ليت.. لولا).

❊ ❊ ❊

التّوبة.. أولُ خُطا السعادة

أرأيت لو أنَّ شخْصاً احترمه النّاس وأحبّوه؛ لِما رأَوا فيه من حسن سيرة، وعلوّ خُلُق، في حين كان هذا الشخص يعلم من نفسه أنّه ملتوٍ ومخادع، أرأيت ماذا سيصنع لو انكشف أمره وبانت حقيقته؟!..

إنّه سيعربد في الكون انحلالاً وكبراً، وسيغري غيره ويدفعه إلى السوء، ويصبح كالذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].. وكل ذلك لأنه على يقين بأنّ الناس لن يغفروا له ولن ينسوه.

هذا حال الإنسان المنافق، الذي يئس من رحمة بني جنسه، بعد أن يئسَ من رحمة الله تعالى، ولا شك أن هذا شأن أحمق الناس وأشقى الأشقياء في الأرض، وذلك لأنه تعامى عن حقيقة بيّنة، يبصرها كل إنسان عاقل، إنها حقيقة يستشعرها المسيء العاصي قبل المحسن الصالح، إنها رحمة الله، هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، رحمة من هو أرأف بالإنسان من أمه وأبيه، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، هو عليم الأسرار، سميع نجوى القلوب، يعلم كيف أغوى الشيطان عبده حتى عصاه، وكيف تغلّب عليه هواه، وضعفت أمامه عزيمته، ثم بعد قليل، ربما انتبه العاصي إلى خطئه، وبلل دمع الندامة عيونه، وربما سمع بقوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فهبَّ مسرعاً إلى ربّه يستغفره ويتوب إليه، متمثلاً بقول الشاعر:

عـجّـل أُخَـيّ بـتـوبـة فـالـمـوتُ أسـرع قـادمِ

مـمـا ركـبـت مـفـرّطـاً لـمـنـاكـر ومـآثـمِ

فلا تكن مغفّلاً، تدمج بين صورتين، صورة رحمة الخالق وغفرانه، وصورة قساوة المخلوقين وجلافتهم، فالله جل في علاه يغفر ما لا يغفره الناس، ويتجاوز عمّا لا يتجاوزه الناس، فهو الملتجأ الدافئ يوم يطردك الناس، وهو المضياف الكريم يوم يبخل عليك الناس، وهو جبّار الخواطر يوم يُدمي قلبَك الناسُ، ولا يكترث لشكواك أحد.

عد إليه، فما لك أحدٌ سواه، ولن تلبث كثيراً، حتى تسمع مع دقاتِ قلبك ترحاباً غامراً في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وتسمع مرةً أخرى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أجل، إنّه وعدٌ من الله إلى العاصي المرتكب كبائر الذنوب أو صغائرها أنْ يؤوبَ إليه، فعنده الرحمة التي وسعت كلّ شيء، وألّا يصغي إلى وساوس الشيطان الذي يكبّر له الوهم، ويحدثه باليأس من رحمة الله، فيقول له: أنت الذي فعلت الكبائر، وأجرمت في حق الناس، فكيف تتوب؟!.. ومن يغفر لك كلَّ هذه الذنوب؟!.. إياك أن تستمعَ له، فهو حاقد عليك، حاسدٌ لك، لعنه الله وطرده من رحمته، وقال فيه جل وعلا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [صۤ: ٧٨].

إنّ ذنباً واحداً قد تخفيه ولا تخبر به أحداً، قد يزعزع مودَّة ما بينك وبين أقرب الناس إليك، ويسقطك من عينه لو علم به، في حين أن هذا

الذنب لا ينفعه ولا يضره شيئاً، أما الله جلّ في علاه، فهو علّام الغيوب، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وعلى الرغم من ذلك، هو الغفور الرحيم؛ فثق به إن فقدت ثقتك بالناس، وعد إليه إن طردك الناس، فهو القائل سبحانه في الحديث القدسي: «**يا بن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة**» [الترمذي (٣٤٦٣)] إنها كلماتٌ لخالق لا مثيل لرحمته، يخاطب فيها مخلوقاً عجزت الأرض عن حمل ذنوبه، بأن يثق بوعده ويعود إلى رشده، إنها جرعاتٌ تحيي الأمل في النفس المخدرة، وتنشط الهمة الراقدة لتستأنف المسير إلى الله تعالى.

إنّ أول خطوة من خُطا السعادة، هي أن تتوب إلى ربّك توبةً دامعةً نصوحاً، ثم تسير مطمئنّاً واثقاً، تلزم باب مولاك وناصرِك، فالسعادة والعيش الرغيد عنده، فهو القائل في قرآنه الكريم: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هود: ٣].

أي: في الدنيا، يطيّب الله عيشكم ويوسّع رزقكم، وهذه بشرى لكلِّ عاصٍ مكتئب، يعاني الشقاء الذي يشد على خناقه، ويعيش في عتمةٍ من حياة تحبسه عن كل نور، إنها بشرى لهم، أن يطووا وراءَهم الصفحات السود بتوبةٍ نديَّة، ثم ينتظروا وعد الله في الحياة السعيدة الهنيئة، دون أن يلتفتوا إلى الوراء الأسود، ليجتروا أحزانه ويستذكروا ـ صباحَ مساءَ ـ آلامه، إنّ عليهم أن يثقوا بأن الله قد غفر لهم وتاب عليهم، فلا يعودوا ليعكّروا حاضرهم بأحزان المعاصي التي مضت، ومضت لَذَّتها القليلة، وغصصها القابضة على الصدر لأيامٍ عديدة، كل ذلك مضى وفات، وما

عليهم إلا أن يفتحوا أمامهم صفحةً ناصعة البياض، يسجلون فيها أعمالاً صالحة، تفتح لهم نور السعادة.

لا تكن كالتلميذ الذي يئس من النجاح، فنفر من كتابه وقلمه، وضاق ذرعاً بالمدرسة وبالحياة، ولم ينفعه درسٌ خاصٌّ، أو نصحٌ أَبويٌّ، ولا تكن النملةُ أفضل منك، كلما وقعت منها الحبّة، عادت لتحملها، بنفسٍ مفعمة بالرجاء والأمل.

إنّ توبتك ليست استراحة من نير الحياة وألمها، ثم عودة إلى المعاصي، بل هي انتصارٌ على النفس الأمّارة بالسوء، انتصارٌ على اليأس الممتد في مساحة أفكارك ومشاعرك.

إنّ توبتك حياةٌ نهضت بعد موت، نهضت لتغيّر معالم النفس، وتنير مصابيح الإيمان.

إنّ توبتك فجرٌ صادق، ترك خلفه ليل الهزيمة، وأشرق بنهار النصر والنجاح.

الفصل الثالث

ملء الفراغ

- جراثيم البطالة
- فجّار كادحون وثقات عاجزون
- البخلاء
- عذاب الروح

❁ ❁ ❁

جراثيم البطالة

إذا كنت من هؤلاء العطّالين البطّالين ـ وأرجو ألّا تكون منهم ـ الذين رضُوا بالحياة الناعسة، الحياة المخدَّرة بالنوم داخل جدران البيوت، المليئة بالعتب واللوم خارجها، فانتظرْ وأنت متكئ على وسادة، مسند رأسك على يدك، انتظر وساوسَ وأوهاماً تعترض تفكيرك، فتقلبه إلى همومٍ وغموم تبث سمومها مع دفقات دمك.

عندما تنظر إلى نفسك، وترى إنساناً فارغاً من كل عمل، يقبع مرّةً في زاوية من زوايا البيت، وأخرى على قارعة الطريق، يدنو من حياته شبح الفشل، ثم ينظر من حوله فيرى الناس ذاهبين آيبين بتفاؤل مشرق كشروق الشمس، إلى أعمالهم ووظائفهم، فاعلم أنك عندئذٍ مشرف على الموت، لا بل متَّ ألف مرة قبل أن يأتي الموت.

الفارغون، هم أصحاب الشائعات، التي لم تجد في الناس من يروجها غيرهم، بَنَتِ الرذيلةُ في أنفسهم أعشاشاً لها، ووجدت أفكار الخبث في عقولهم أحضاناً لها، ينامون في النهار، ويتسكّعون في الليل، يتخلّفون عن الركب، ويحسدون الناجحين في الحياة، أولئك كالذين قال الله تعالى عنهم: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

ما قيمة الإنسان الفارغ الكسول في حياة مفعمة بالجد والعمل؟!..
إنه عالة على الحياة ذاتها، لا رصيد له فيها، تموت آماله أمامه وهو

يرمقها بعين الندامة والحسرة، لا غاية له يسعى إلى تحقيقها، ولا طريق واضحة يسير فيها، إنّ حياته شقاءٌ وأهوال، كما وصفه الرافعي في شعره:

غيرَ أنّ الكسول في كلِّ يومٍ يجدُ اليومَ كلّه أهوالا
من يقمْ في الأمور بالجدّ يهنأْ والشقا للذين قاموا كسالى

هؤلاء المرابطون على عيوب الناس، الذين يلحقون الشاردة من الكلام والواردة، فيجعلون منها شائعة، توزع هنا وهناك، خفضوا هاماتِهم تحت سياط الفراغ، وسجنوا أنفسهم في كوابيسه وأمانيه.

أترضى أن تدفنَ نفسك في أرض الخمول، وينظر إليك الناس بعين السفالة والصغار، وغيرك يصعد إلى المجد بكل عزيمة وهمة؟!..

اسمع ما قاله عمر رضي الله عنه: «إني لأرى الرجل فيعجبني، فإذا سألت عنه، فقيل: لا حِرفة له، سقط من عيني»، وفي الحديث: «**إنّ الله يحبُّ المؤمن المحترف**» [الطبراني في الأوسط (٩١٨٢)] أي: الذي له حرفة، يتكسّب منها.

عاش (تشرشل) ـ رئيس وزراء بريطانيا سابقاً ـ طورين متناقضين في حياته، الطور الأول امتد إلى الخامسة والخمسين من عمره، وهو يرى فيه حياةً توشك على النهاية، لا معنى لها، حتى قال عنه طبيبه الخاص: إنه كان دائماً يبدو مكتئباً ويائساً، ولم يكن يرى إلّا الجانب المظلم من الحياة، أما طوره الثاني فهو طور الارتياح والطمأنينة، كما عبّر عنه بقوله: كيف أقلق وأنا مشغول بمعدل ثماني عشرة ساعة عمل في اليوم والليلة؟!.. جواباً عن سؤال وجّه إليه في أثناء الحرب العالمية الثانية: هل تشعر بالقلق في هذه الفترة؟[١].

(١) دع القلق واستعن بالله، محيي الدين عبد الواحد، ص١٥١.

إنّ من عظيم فضل الله على الخلق نعمة لا تُعادلها نعمة، إنها نعمة تسير معك لحظةً فلحظةً، فإن استثمرتها فقد نجحت، وإن أهملتها فقد فشلت، وانقلبت في حقك نقمة، إنها نعمة الوقت التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**» [البخاري (٥٩٣٣)].

إن هذا الدين، يقيك من آثام البطالة، ولَوثات الفراغ، فهو لا يترك لك فرصةً للعبث والغفلة، إنه جهادان، جهادُ النفس التي تشتهي المعاصي وتميل إلى الخمول والكسل، وجهادُ الناس الذين يعتدون عليك، ويعيثون في الأرض ظلماً وفساداً، وللإمام الشافعي رحمه الله حكمةٌ يقول فيها: «إذا لم تشغلْ نفسك بالحقّ شغلتك بالباطل».

إني أسأل: لماذا يبتسم ذاك الرجل وهو مقدم على العمل، بعدما كان واقفاً على الرصيف منذ الصباح الباكر، في حين يعبس هذان الرجلان اللذان استيقظا في الظهيرة بعد نوم ثقيل، أمضاه أحدهما على سرير وثير في بيته الفاره، وأمضاه الآخر على حصير رث في بيته القديم؟ . .

الفرق، أنّ الأول ـ أيّاً كان: بنّاءً، أو صانعاً، أو فلاحاً، أو خبّازاً ـ قد استغلّ فراغه بالعمل، وشقّ طريقه بنفسٍ مفعمة بالأمل، فافترّت شفاهه بابتسامة عريضة، أما الآخران؛ فخدّرتهما جراثيم البطالة، وملأ عينيهما الفراغ المتثائب فاستيقظا ظهراً، متخبطَين عابسَين، شبيهَين بأولئك الذين قال فيهم ربُّ العزة: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

❊ ❊ ❊

فجّار كادحون وثقات عاجزون

إذا رأيت أبناءً من المسلمين كسالى خاملين، يتكفّفون الآخرين، وقد عطّلوا عقولهم بالوساوس والأقاويل، وأهملوا مواهبهم، وأحرقوا قلوبهم بمشاعر العجز والملل، فلابدّ أن تحزنَ، والذي يحزنُكَ أكثر أن ترى الأغيار الحاقدين على الإسلام والمسلمين، وقد وصلوا الليل بالنهار، شاقّين الحياة بهمةٍ لا يُعرَف لها مثيل، معاندين الفراغ عناداً لا فتورَ فيه ولا كلل، وهذا كلّه من أجل النيل من المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل.

أليس بمحزنٍ أن ترى كتلاً متراكمة من المسلمين، أقعدهم الركود والتواكل عن وظائفهم وأهدافهم التي أناطها بهم الإسلام، وترى أعداءَهم يمخرون عباب الحياة بكل دأبٍ وَجَلد؟!..

المؤسف حقّاً أن يَسْتلْقيَ الواحد منّا على ظهره، ثم يطلق لخياله العنان في فضاءٍ مملوء بالأوهام والأماني، فإذا ما انتهى إلى أمنيةٍ تستدعيه أن يقومَ في الحال؛ سَوَّف وقال: سأبدأ في أوّل الأسبوع، أو الشهر أو بعد العيد، وهكذا تمر الأيام، وأمانيه لا تعدو أن تكون حركةً في الفكر، لا واقعَ لها في الحياة، وواجباته يتكدّس بعضها فوق بعض، حتى تتعفّن وتفوح برائحة اليأس والإحباط، ويرثيه من يراه بقول الشاعر:

دعِ المكارمَ لا ترحل لِبُغْيَتِها واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

(سوف)؛ حرفٌ يمنّي قائله، ثم يخذله ويجلب له الأسى، فهو كالظمآن الذي لاح له من بعد - في صحراء كاوية - ماءٌ يتلألأ، كلما تقدم إليه ليرتشف منه شُربة، ابتعد عنه وتركه في حرقة، ثم بعد حين اكتشف أنه كان مخدوعاً، وأنّ الذي رآه هو سراب لا حقيقة له، فهو النادم الذي ضيع وقته، وسرقَ عمرَه، وهو يسوّف، حتى داهمه الموت وما فعل شيئاً، ليته سارع إلى فعل ما يقول في يومه وساعته، أو صمت عن الكلام، فلا يقول سأفعل ذلك غداً، منتفعاً بقوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، ليته اهتدى بقول رسول الله ﷺ: «**وإياكم والتسويف بالتوبة، والغِرَّة بحلم الله، واعلموا أنّ الجنةَ والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله**» [الجامع الكبير (١٠٧٦٩)].

استغل كلّ لحظة من حياتك، بالعمل الجادّ الصالح، الذي ينفعك في الدنيا والآخرة، فكل متحرك يستوعبه وقت يذكرك بعمرك الذي يمر، يقول الشاعر:

دقّاتُ قلبِ المرء قائلةٌ له إنّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

ثم كيف يطيب العيش، في زمن يستغلّ فيه الأعداء كلَّ لحظة، وكلَّ فرصة لكسر شوكةِ الإسلام والمسلمين؟! لقد جهدت الصهيونية العالمية عشرات السنين، وأنفقت الأموال الطائلة، وجنّدت آلاف الناس - يدهشك إنْ عرفْتَ أنّ فيهم عرباً ومسلمين - كل ذلك لتدسّ سمّها في دمائنا، مسلسلات تحارب الدين، ومشاهدُ إباحية تهدم الأخلاق وتطعن الحياءَ بسكين الغدر واللؤم، في أقنيةٍ مرئيةٍ ومسموعة، أُريدَ لها أن تصلَ إلى بيوتنا، والمؤسف أنها وصلت.

«اللهمّ إني أعوذ بك من جَلَد الفاجر، وعجز الثقة»؛ دعاءٌ للفاروق عمر رضي الله عنه، كان يستعيذ بربه من عزم الفاجر ومثابرته على الظلم والفجور،

ومن كسل الثقة وخموله في طريق الحق والعدل، أليس عجيباً أن ترى اليوم أناساً قد وُهِبُوا الذكاءَ والعبقرية قابعين في حياةٍ فارغة، يبدّدُ مواهبهم الكسل والضياع، وترى أناساً آخرِين مصرّين على تحقيق طموحاتهم، يتجشّمون عناء الحياة تحدياً وصُعداً، ورصيدهم من القدرات العقلية لا يساوي نصف أو أقلّ ما يمتلكه الأولون؟! وأصدق ما يقال عن هذين الفريقين: الناس رجلان: رجلٌ نام في النور، ورجلٌ استيقظ في الظلام.

(غولدا مائير).. أتذكر هذا الاسم؟.. إنها المرأة اليهودية التي دارت في الأرض طولاً وعرضاً، وعملت سفيرةً، ثم وزيرةً للعمل، ثم رئيسة للوزراء حتى حصلت هي و(دايفيد بن غوريون)، رئيس الوزراء الذي سبقها على ـ ما يقلقنا ويثير غضبنا ـ (الكيان الصهيوني)، لو طالعت مذكرات هذه المرأة، لوقفت أمام جَلَدِها وصبرها مدهوشاً، هي التي قالت عن نفسها: «لقد اتهمتني عائلتي بإرهاق نفسي زيادةً عن اللزوم، وحتى اليوم وبعد أن استرحْتُ، ما زال أولادي يتهمونني بأنني لم آخذ نصيبي من الراحة في تلك الأيام»[١].

وقالت في مكان آخر من مذكراتها: «اغرورقَتْ عينايَ بالدموع، لقد استطعنا الحصول على الدولة ـ تقصد إسرائيل ـ والاستقلال، وعشت لأرى ذلك اليوم، استطعنا إنشاء الدولة بأي ثمن، ورغم ما يحصل»[٢].

وبعد، ترى: ألا يستأهل هذا الدين الذي طالما زعمنا أننا من

---

(١) كتاب الحقد: ٢/ ١٣٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢/ ١٧٨.

أنصاره بل نحمل لواءَه، ألا يستأهل منا جهوداً تبذل، ودموعاً تذرف، ومشاعرَ تموت وتحيا من أجل خدمته، والذَّود عن مفاهيمه وحقائقه؟!.. سألتك فأجبني!!.

البخـلاء

ليهدأْ ويطمئن صاحب المال الوافر، وليرابط على خزانته، فلن أطلب منه أن ينفقَ صدقةً لمحتاج أو مسكين، لأنني سأتحدّث بمعزل عنه.

لا تحسب أنّ تحت هذا العنوان صرخةً مدوية تقضّ مضاجعَ البخلاء، وتهزّ مشاعر حرصهم على المال في أجلى صورة، بل إنّ تحته ملامة دامعة على أولئك الذين حوّلوا بيوتهم إلى قفار بائسة، كلما اقتربت منها استوحشت المكان وأفزعك صفير الرياح العاتية، إنهم بخلاء العطف والحنان.

أجل، إنّ البيوتَ التي حُرِمَتْ من عاطفة الأبوّة، أو حنان الزوجية قِفارٌ موحشة، تلوذُ بها الوحوش التي لا ترحم، وتحوم بها البوم التي تنعب صباح مساء، وإن كانت في الظاهر قصوراً شامخة، وفي داخلها رخاءٌ في العيش وسَعة في المال، لا تخدعنّك المظاهر، فربما اجتمع على مائدةٍ مختلفةِ الأطعمة متنوعة الأشربة عددٌ من أفراد أسرة واحدة، يغبطهم السامع والرائي، وهم في حقيقة الأمر جائعون محرومون، إنهم يتامى العطف والحنان، وإنّ الذي ينقصهم من تلك العاطفة أثمن بكثير مما يحتاجون إليه لِشراء ملابس أو تنعّم بأكلٍ أو تمتّعٍ بمتاع.

إنّ القلوبَ التي يعصرها الحزن، ويقتلها اليأس والأسى، هي قلوب حُرمت من عاطفة هؤلاء الذين يحيطون بها، إنها قلوب مساكين الناس،

ينطوي الواحد منهم في زاويةٍ من زوايا البيت، لا يكترث له أحد، ولا تَسْمَعُ شَكواه إلّا عيونه الدامعة، يشتهي أن يسمع كلمةَ حنانٍ مشجّعة؛ تُنهض فيه مواهبَ مضى عليها زمنٌ وهي هامدةٌ راقدةٌ، يحلم بيدٍ دافئة تمسح عن رأسه غبارَ البؤس والحرمان، إلّا أنّ أمنياتِه تذهب أدراج الرياح، قلوبٌ يفتك بها اليأس، فيبلّدُ مشاعرها من دون رثاء، ويقتل آمالها من دون عزاء، فهي كما قال الشاعر:

شفّها الغيظُ والأسى وتراها كظمتْ غيظَها وأخفتْ أساها

إنّ كلمةَ حنانٍ يطلقها أبٌ ليجبرَ كسر خاطر ابنه أو ابنته تعادل ما في هذا العالم من كنوز ثمينة، أو قصورٍ عالية، وربما بقيت هذه الكلمة حبيسة شفاه يابسة شحيحة، يرى صاحبها أنه أجرم في حق عصبيّته لو نطق بها، إنها العصبية المجحفة لكلّ كلام طيب، ولكل إحساس رهيف.

نعم، إنّ العصبية في حياتنا هي التي تقسّي القلوب، وتمتص العواطف، وتُخرج أربابَها من سخاء الإنسانية إلى بخل الوحوش المتهارشة، ولعلّي ظلمت الوحوش فهي تحنّ إلى أبنائها وتدافع عنهم، أمّا هم فينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، بعد أن فسّر القرطبي هذه الآية أوردَ هذا الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: اطلبوا الحوائج من السُّمَحَاء، فإنّي جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوها منَ القاسية قلوبهم، فإنّي جعلْتُ فيهم سخطي**»[(١)].

ما أعجبَ أمرَ هؤلاء!.. ألا يتأسَّوْنَ برسولهم محمد ﷺ، منبع الرحمة ومثال العطف والحنان، «كان ـ كما أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها ـ إذا

(١) تفسير القرطبي: ٥/٢٤٨.

رأى ابنته فاطمة قد أقبلت رحّب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه» [الأدب المفرد (٩٧٩)]، إنه شعورٌ طافح بالحنان، يجعل الابنة ماجدةَ النفس، واثقة الخُطا، خلفها دنيا مزبِدة فوق ماءٍ عكر لا تساوي شيئاً، وأمامها أبٌ عطوفٌ يفوق كلّ شيء.

إنّ ابتسامةً تشرق من شفاه أحدِ الزوجين تعادل انتصاراً ساحقاً لجيش جرّار، وإن عبسةً لئيمة تعادل ما يلاقيه هذا الجيش من توبيخ وسخرية، من كل الذين يمر بهم، وهو عائد يجر ذيول الهزيمة.

إلى الآباء والأمهات، إلى الأزواج، إلى كل من يقرأ هذا الكلام، تعالَوا بنا نفتح في الحياةِ صفحةً جديدة، لنداوي قلوبنا القاسية ببلسم الدين، بلسم ذكر الله الذي يعيد إلى القلب حياته، بلسم التقوى الذي يعيد إلى القلب نبض الحبّ والعطف.

البلسم بين أيدينا، وعلينا ـ ولا مفر ـ أن نستعمله، لتطيبَ أنفُسُنا، وتشفى قلوبنا، فنهتمّ بمعنويات أولادنا وأزواجنا، فننمّيها بدلاً من أن تموت، بدلاً من أن تجد ذئباً بشريّاً، يتبنّاها بالخداع والحيلة، ويلهب نارها بالتصنع والكلام المعسول، كنّا نحن أولى منه بِحضنِ أكبادنا وقرّة أعيننا.

إنّ اليأس الذي يخلّفه هذا الفراغ من العاطفة، هو أخطر أنواع اليأس، قد يدفع الابن إلى الإجرام، والزوجة إلى الخيانة، والفتاة إلى التمرّد، ولا يُتَّقَى إلا بالعطف والحنان.

إنّ البيت الذي يحيا بالإنسانية والرّحمة لهو بيتٌ قويُّ البنيان، لا تؤثر فيه عواصف المغريات، ولا تخدشه قذائف أولئك الذين تعوّدُوا أن يشتروا الإنسان المحطّم ليستغلُّوه ثم يرموه.

تلك كلمات، أردْتُ بها أن أوقظ النفوس الغافية، لتحذر كلّ الحذر من جريرة البخل العاطفي، فلْتدخلْ إلى بيوتها والبشاشةُ والابتسامُ في وجهها، والرأفة والسلام في كلامها، تدخل إلى ذلك الإنسان القابع في زاويةٍ لا يأبه له أحد، دموعه في عينيه، وآهاته في صدره، فتحضنه بذراعٍ دافئة، وتستمع إلى شكوى أنّاته القابضة، فتخاطبه بكلام نديّ رحيم يقشَعُ من قلبه لُزُوجة اليأس، ويمسح عن خدِّه دموعَ الوحشة.

❋ ❋ ❋

عذاب الروح

إنْ أنت شعرْتَ بالجوع سعيْتَ إلى الطعام، وإن ظمئتْ كبدُكَ سعيت إلى الماء، لكن إن اعتلّت روحك التي بين جنبيك فإلامَ تسعى؟!..

إنّ أكثر الأشقياء في الأرض، المعذَّبين في الحياة، لا يخرج عن هذين الفريقين من الناس: أحدهما ضاق ذرعاً بالبحث عن غذاءٍ لروحه، فآثر العيش ضائعاً في الحياة، كما تعيش البهائم، إلّا أنّ البهائم أفضل حالاً منه؛ لأنها لا تدرك الألم ولا تشعر بالوحشة.

والفريق الآخر سعى باحثاً عن غذاء روحه، لكنه ضلَّ الطريق، وانتهى به المطاف إلى إلٰهٍ يعبده من دون الله جل وعلا، كالشمس أو النار أو الشيطان، أو المال أو غير ذلك، يحسب أنّ مثلَ هذه العبودية ستروي روحه المعذّبة الظامئة.

ثم إنّ هذين الصنفين من الناس ـ الذين يعيشون معيشة ضنكاً ـ توهموا أنّ الترفَ والرفاهية والغوص في الحياة المادية من أساسيات الحياة السعيدة، التي تريح الروح من عذابها، وتفكّها من قيودها وسجنها، ولا يخفى عليك وعلى كل عاقل أنّ هذا التصوُّرَ خطأ وغلط، بدليل أنّ كثيراً من أولئك الذين تتراقص من حولهم مظاهر الغنى والرفاهية، تتقاذفهم قطعٌ من يأسٍ مظلم؛ تخيّم على قلوبهم، وتغبّر وجوههم، فلا يهدأ للواحد منهم بال، ولا يسكن له خاطر، يحلم

بالسعادة ولا يراها على رغم ما يحيط به من أضواء صفراءَ وحمراءَ، ويحلم بالاطمئنان والأمان، ويبقى هذا الحلم بعيدَ المنال!.. إنّهم أصحاب القلوب البائسة، والأرواح المعذبة، منهم مؤسس المذهب الوجودي (سيرن كير كجور)، والحقيقة هو لم يؤسس شيئاً، بل توهّم أنّ للإنسان وجوداً خالداً لا يفنى، ونسج من هذا الوهم ما يسمى (بالفلسفة الوجودية)، وهي حصيلة إلحاد رجل عانى قلقاً واضطراباً ثقيلين، فهو ومن تبعه يجترّون الآلام بكل صبرٍ ومكابرة، ويتجهون في فلسفتهم إلى أقصى أنواع المتعة واللّذّة، زاعمين أنّ الغنى والترف هما سرُّ السعادة التي لا تنتهي.

ثم إنّ هذا الرجل الذي خُلِقَ مشوّهاً، لم تسعده فلسفته، فقد عاش بائساً منطوياً، ظامئ الروح، ولا سيما بعد أن فشل في تجربته الغرامية، إذ عشق فتاةً، ولم يتح له أن يسعد معها، فأخفق في أدنى أحلامه العاجية، إنه الفراغ الروحي، يمتد في أرجاء القلب فيحرقه، ويمتد في أرجاء البدن فيسقمه.

إنّ عذاب الجوعِ والعطش يردي صاحبه قتيلاً، يودّع الحياة بنظرات عاتبة متحسّرة، لكنْ أيّ عذاب هذا الذي يجعل الإنسان يرمي نفسه من برجٍ شاهق، أو يشنق نفسه بحبل غسيل، أو يطلق على نفسه الرصاص، أو يتجرع السم منتحراً؟!..

إنه عذابُ الروح، وهو الذي يقلق النفس ويرهقها، ثم يسوقها كأحمق مخلوق، وأيئس إنسان إلى مسلاخ الانتحار، ولعلّ أكثر البلاد التي تئن تحت وطأة هذا العذاب أنيناً يفقدها كثيراً من أبنائها؛ هي بلاد حققت في سلّمها المتمدن الراقي إنجازات ونجاحات في مختلف

المجالات، إلا مجالاً واحداً عجزت هذه البلاد المتقدمة أن تحقق فيه أيَّ تقدُّمٍ يذكر.

إنها بلاد الغرب المتحضر، الغرب الذي ضلّ الطريق وهو يبحث عن ترياقٍ يعالج به هؤلاء المعذبين من أبنائه، الذين خدعتهم البهارج الدنيوية، واللّذائذ المادية، فالتجؤوا إلى الانتحار وسيلةً أخيرة يختمون بها حياتهم الشقيةَ المؤلمة.

(لا تقرأ هذا الخبر) عنوان كبير تطالعك به كل يوم صحفٌ غربية؛ تقرأ تحته: رجلٌ قَتل أولاده وزوجته ثم انتحر، وابنٌ قتَلَ والديه ثم انتحر، وطالبة قتلت زميلها ثم انتحرت، وغير ذلك كثيرٌ من الجرائم المروّعة التي تقرؤها تحت هذا العنوان.

أتعلم لماذا يقول المنتحر قبل أن ينتحر: إنني أتيت خطأ إلى هذه الحياة التعسة التي لا تستحق أن يعيش فيها الإنسان، لِذا سأرحم كلَّ من أقتله، ثم أرحم نفسي بالانتحار؟.. الجواب: لأنّ المنتحر أرهقته نفسه الجائعة العطشى، فتركها حائرةً مضطربة تتلجلج في أنحاء بدنه حتى أردته قتيلاً.

قارئي الكريم! إنّ ذلك المنتحر ضلّ الطريق، أما أنت فحريٌّ بك أن تعرفه وتبصره، فهو الطريق الذي يوصلك إلى شط الأمان، فيه صحة نفسك وغذاء روحك، إنه طريق الإيمان، الطريق الذي يفتح عينيك على حياة جديدة، هو الذي يخلّص الحيارى والمضطربين من قلقهم، ويخلّص التعساء والمحرومين من فقرهم ويأسهم.

الإيمان هو الطريق إلى حياة طيبةٍ، مليئةٍ بالتفاؤل والأمل، وهذه حقيقةٌ لا يختلف فيها عاقلان، وقد أثبتها القرآن الكريم في مواضع كثيرة،

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

* * *

الفصل الرابع

ورود في بستان السعادة

- عمرك أربع وعشرون ساعة
- العمر الرخيص
- الإحسان يفرج كروب الإنسان
- دعاء واستغفار

❋ ❋ ❋

عمرك أربع وعشرون ساعة

دعك من ذكريات الماضي الذي ولّى، دعك من أعباء المستقبل الذي لم يأتِ بعد، وعش في دائرة يومك خلال أربع وعشرين ساعة.

إذا تركْتَ الزمام لخيالك فسيجلب لك منَ الأمس ملفّات غابرة، وسينطلق بك إلى الغد ليستجرَّ منه أوهاماً ووساوسَ تورث لك هموماً ثقيلة وأحوالاً مُتعبة، لا تكن كالذي يتّكئُ على وسادته، ثم ينسج من خياله حياةً مليئةً بالمتعة والسرور؛ يتوهم نفسه ملكاً فيها وكل مَنْ حوله يريد رضاه، ثم لا يلبث أن يصحو من حلمه هذا، ليجد نفسه مصطدماً بواقعٍ لا مفرّ منه، وإذْ بأمَله ينقلب يأساً، وطموحه ينقلب تراجعاً، إنه خداعُ الخيال، حوّله إلى إنسان آخر، جسمه في زمان ومكان، وفكره في زمانٍ ومكانٍ آخرين.

قديماً قيل: (العقل بالتعقّل)، أي: لا ينفع العقل صاحبه إذا لم يُرشِدْه إلى الحق، وقلْ: إلى السعادة، وإنَّ تعقُّلَ شخصٍ واحدٍ، يعيش ضمن ظروف يومه، أثمن بكثير من قناطيرَ مقنطرة من ذكاء آلاف من الناس يئنّون في يومهم بأعباء مستقبلهم الطويل، وليتهم قرؤوا تلك الوصية الذهبية، التي كتبها النبيُّ ﷺ على جبين الدهر: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**» [الترمذي (٢٢٦٨)] إنها عناصر قد لا تأبه لها، لكنها عناصر تتيح لك أن تفكرَ بهدوءٍ وتُؤَدة، تفكيراً قد يغير مجرى حياتك كلها.

عندما تدرك هذه الكلمات، تدرك كم يخطئ أولئك الذين يستمعون إلى نوعٍ من الغناء، يجرُّ لهم ذكريات موجعة، ويعكّر يومهم، ويدمع عيونهم، ويقلق قلوبهم، وهم يترنحون ويستمتعون.

إنّ عمرك يوم واحد، عش في حدوده كأنك ولدْتَ فيه، وستعيش فيه، وستموت فيه، واصرف كلّ اهتمامك إليه، واجعل لحظاته التي تمر سنينَ كاملة، اِنْسَ الماضي وآهاته، ولا تقلقْ لأجل المستقبل، ولا تستبق أحداثه.

قال الأديب (سدني سميث): «لماذا ندمّر السعادة الحاضرة بشقاءٍ بعيد، شقاء يمكن ألّا يحدثِ أبداً، ذلك بأنَّ لكل حزنٍ واقعي عشرين وهماً، ومعظم هذه الأوهام هي من صنعك أنت»[١].

وقد نظم الشاعر الإنكليزي (وليام بليك) شعراً يحذّر فيه من قلق المستقبل وشكوكه القابضة، منه[٢]:

ما كانت الشمسُ والقمرُ ليطلعا

وسيختفيان حالاً من صفحةِ السماء

لو أنّهما خضعا للشك وعدمِ الثقة

اِرْضَ برزقك ومستواك وزوجك ووظيفتك، وأقدم على الأعمال الصالحة التي تسعدُ بها بقلبٍ شجاع، لا يخاف إلّا ربّه، ولا تمُتْ كما يموت الجبناء، واستمع لقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

إنَّ قدرتك على العيش في حدود الزمان الذي يمرّ بك وحدودِ

(١) سبيلك إلى السعادة والنجاح، ص١٢٥.

(٢) أفكار للحياة، ماكسويل مولتز، ص١٨٠.

المكان الذي أنت فيه هو سر نجاحك في الحياة، إذا كنت في البيت فانسَ مكان عملك، وإذا زرْتَ أخاً لك فعش بجوّ الزيارة وانسَ الأجواء الأخرى، وإذا دخلْتَ إلى محاضرةٍ أو درس فانسَ الخارج، وهكذا لا تُدخِلْ زماناً في زمان ولا مكاناً في مكان فتُهْزَم، ويستخف بك الناس، وتَضيع السعادة من بين يديك.

قم من غفلتك السارحة بالأوهام والأماني، وانتبه إلى ساعتك التي أنت فيها، ولا تحزن لفقر الأمس، لأنك لن تشعر الآن بمرارته، ولا تفزع من شبح الآتي، لأنه لا يزال بعيداً عنك، واكتب هذه الكلمات على جدار ذاكرتك: «إنما بيني وبين الملوك يومٌ واحد!! أما أمسُ فلا يجدون لذّته، وأنا وهم من غدٍ على وَجَل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم؟!»، هذا التّحدّي الصارخ من الفقير الصالح للملوك والسادة ردده الشاعر بقوله:

ما مضى فاتَ والمؤمَّلُ غيبٌ ولك الساعةُ التي أنت فيها

❀ ❀ ❀

العمر الرخيص

إنّه عمرُ أولئك الذين نسجوا من الدنيا ثياباً، زعموا أنها ستخلد ولن تبلى، وأبحروا في لجتها على أنها بحرٌ ممتد الأطراف، لا شاطئ له ولا منتهى، إنهم أغبياء الناس، هم أوّل من يتعرضون لنوائبها، فيتجرَّعون المرار، وأول من يكتوون بنارها، فلا يقفون على حكمٍ أو قرار، ظلموا أنفسهم، فعظّموا الدنيا وجعلوها مبلغَ آمالهم وأحلامهم، جمعوها في قلوبهم، كأغلى درّة وأبهى لؤلؤة، وخافوا أن تُسرَق منهم أو تضيع، ثم بعد قليل علموا أنهم كانوا في دوَّامة، يعيشون حياة اللعب واللهو، وأنّ التي كانوا يتكالبون عليها أورثتهم خيانةً ستحزنهم بقية حياتهم، وأنها كما وصفها ربُّ العزّة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

إذا أردْتَ أن تعرف وزنَ الدنيا وحجمها، فاسمع هذا الحديث قبل أن تسأل أولي الحلم والحكمة، قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء**» [الترمذي (٢٢٤٢)].

ميزانٌ صادق مصدوق، يعطي الدنيا قيمتها الحقيقية، فهي ميدان الفواجع، هجّارة الأحباب، كدّارة الصَّفو، خدّاعة العيون، أميرها

محسود، وعبدها ذليل، وعاشقها مقتول، هذه هي على حقيقتها، إياك أن ترفع من سعرها فتخسر، وأن تساوم عليها فتندم.

أكثر المحزونين هم الذين أعطَوا الحياة الدنيا قيمةً أكبرَ من قيمتها، فكانت موضع اهتمامهم، حاولوا أن يحوِّلوا نارها إلى جنة الخلد، وجحيمها إلى نعيم دائم، لكنهم عادوا بخفَّي حنين، عادوا وعيونهم متورّمة، ووجوههم متجعّدة، إنهم الفقراء المشتّتون؛ الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**من كانت الدنيا همّه جعلَ الله فقرَه بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدّر له**» [الترمذي (٢٣٨٩)]، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «**تفرّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبرَ همه أفشى الله ضيعته، وجعلَ فَقره بين عينيه**» [الطبراني في الكبير (١٧٩٧)]، إنه توجيه بليغ، يطالب الإنسان بالرجوع عن جنونه، وهو يركض كالوحش الضاري وراءَ الرغيف، وكأنه يعيش في الأدغال، لا فضائل تستوقفه، ولا دين يردعه، فقد تحوّل من إنسان مهذبٍ رقيق إلى حيوانٍ محدود الظفر والناب.

اعلم: أنّك لو حاولت مرةً ومرات أن تعيش في هذه الحياة مكلوءاً من كل هم وغم، صافياً من كل عكر، فإنك لن تنجح، لأن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، وإنّ حزنها وغِلّها باقيان ولن يزولا حتى تزول، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧].

هذه هي الدنيا، فاعرف مكرها، حتى لا تبكي عليها، ولا تعتمد على وعدها، فهي بخيلةٌ ورخيصةٌ وخائنة، هي كما صورها الشاعر:

حكمُ المنيةِ في البريَّةِ جاري ... ما هذه الدُّنْيا بدارِ قرارِ

بينا تَرَى الإنسانَ فيها مُخْبِراً ألفيتَه خَبَراً من الأخبارِ
طُبعتْ على كدرٍ وأنت تريدُها صفواً من الأقذارِ والأكدارِ
ليسَ الزمانُ وإن حرصتَ مسالماً طبْعُ الزمانِ عداوةُ الأحرارِ

أجل، هذه دنياك، فاحذرها، وعش فيها عيشة الأَعِزَّة الكرام، لا تثقْ بها أبداً، ولا تعتمدْ عليها أبداً، بل ثق واعتمد على الواحد القهّار، عش فيها عيشة الفَطِن الحليم، استنطق من ذلّها صوت الشجاعة، وخذ من وجهها الكظيم ابتسامةً عريضة، وأبصر في عيونها الخائنة أمل الدنيا والآخرة، ولا تستكنْ إلى الاستسلام واليأس، لأنك تستطيعُ أن تنطلقَ بعد الكبوة، وتستطيعُ أن تنتصرَ بعد الإخفاق والهزيمة، واسمع هذا التشجيع والحماسة:

وقالت لي الأرضُ لما سألتُ أيَا أمُّ هل تكرهين البَشَر؟
أباركُ في الناس أهلَ الطموح ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَر
وألعنُ من لا يماشي الزمان ويقنعُ بالعيش عيش الحَجَر

❁ ❁ ❁

الإحسان يفرج كروب الإنسان

هذه حقيقة استخلصها العقلاء من تجاربهم، تستطيع أنت وغيرك أن تجربها، فإذا ضقت ذرعاً بالحياة، واسودَّتِ الدنيا في عينيك، وتلوّنت باليأس مشاعر قلبك، فسارعْ إلى جميلٍ تصنعه، أو لهفان تغيثه، أو جائع تطعمه، أو مظلوم تنصره، ثم لا تلبث قليلاً حتى تجد نفسك مشروح الصدر، مجبور الخاطر، في وجهك بسمة الحياة، وفي عينيك بريق الأمل، وأكثر من ذلك فالله تعالى معك، فهو القائل جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

إنّ إحسانك إلى الناس يشقّ لك طريقاً إلى السعادة التي تنشدها، فيفرّج عنك الكروب القابضة، ويبرّد لظى مشاعرك الحارقة، إنه الشعور بالراحة النفسية، إنه شعور العطاء بعد الأخذ الكثير، وإن كان المعطي الحقيقي والمتفضّل الحقيقي هو الله جلّ في علاه، وأنت من عطائه تعطي، ومن كثير نعمه تمنح، وإياك ثم إياك أن تقول: ليس عندي شيء لأعطي، إنها مقولة الأشقياء اللئام، فأنت عندك الكثير، إن لم يكن عندك مالٌ تبذله فعندك عطفٌ وحنانٌ فابذله، عندك وجهٌ يستطيع أن يبتهج، وشفاه تستطيع أن تبتسم، عندك لسانٌ تستطيع أن تتكلم به الكلامَ الحلوَ الجميل، وعندك قلب تستطيع أن تبعث منه أحاسيسَ دافئة إلى كل مسكين أو يتيم، قال رسول الله ﷺ: «**على كل مسلمٍ صدقة**» قيل: أرأيت إن لم

يجد؟ قال: «**يعملُ بيديه فينفع نفسه ويتصدق**»، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف أو الخير**»، قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «**يمسك عن الشر فإنها صدقة**» [مسلم (٢٣٨٠)].

الإحسان دواؤك، والبخل والحرمان داؤك، والشاعر يقول فيك:

دواؤك فيك وما تُبْصِرُ وداؤك منك وما تشعُرُ
أتزعمُ أنّك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

ثم عليك ألا تبكي إذا ما نكر الناس جميلك وعرفانك، فهم هكذا صنعوا مع ربهم قبلك، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

صاحب الإحسان، هو المغبوط في حديث رسول الله ﷺ: «**لا حسدَ إلّا على اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ الكتاب وقام به آناء الليل، ورجلٌ أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار**» [البخاري (٤٦٣٧)].

وهنا ألفت الانتباه إلى أنّ كثيراً من المنفقين يبتغون في إنفاقهم جاهاً وذِكراً بين الناس، أو منصباً ومكانةً في الدنيا، هؤلاء ما لَهم في الآخرة من نصيب، وهم ونواياهم، فنحن لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، ومنهم من يذكّر المسكين بفضله عليه، فيمنُّ عليه ويؤذيه، فهذا الفريق من الناس أنفق ابتغاء الدنيا، وأخذ أجره في الدنيا، ولا يشمله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، ولا يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

كان حاتم الطائي يعتقُ خادمه إذا أحسن ضيافة الضيف فيقول له:

أوقـدْ فـإنّ الـلّـيـلَ لـيـلٌ قُـرُّ   إذا أتـى ضـيـفٌ فـأنـت حُـرُّ

وكان يأبى أن يأكل وحده فيقول لامرأته:

إذا ما صنعْتِ الزادَ فالتمسي له   أكولاً فإني لستُ آكلَه وحدي

وكان عروة بن الورد يردّ على المستهزئين به بهذه الأبيات:

أتهزأُ منّي أن سمنتَ وأن تَرى   بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أوزّع جسمي في جُسُومٍ كثيرةٍ   وأحسو قَراحَ الماءِ والماء باردُ

إنه المعروف يجلب لصاحبه الفرح والسرور، ويقيْهِ من مصارع السوء؛ أروي لك قصة[1] هي خير مثال على ما أقول: كانَ الوزير ابن الفرات يلاحق أبا جعفر بن بسطام بالأذى، ويقصده بالمكاره، وهو صابر ساكت ينام على مخدّةٍ تحتها رغيف من الخبز، اعتادت أمّه أن تضعه تحت رأسه منذ كان طفلاً، وتتصدق به كل صباح، وفي أحد الليالي أضمر الوزير في نفسه مكيدة لقتل أبي جعفر، ثم نامَ فرأى وكأنّ بيده سيفاً مسلولاً يقصد أبا جعفر ليقتله، فتعترضه أمُّه بيدها رغيف تُترّس ابنها به، وما وصل إليه، وكان قد قصّ رؤياه على أبي جعفر، ومن حينها أصبحا صديقين، وقال له الوزير: والله لا رأيت مني بعدها سوءاً أبداً.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: الفرج بعد الشدة، للتنوخي: ١/ ١٤١.

دعاء واستغفار

أتعلمُ ما سرّ الانتصارات الكبرى التي يحققها أناسٌ قد لا يُلقى لهم بال ولا يُكنّ لهم قيمة أو تقدير؟!.. إنه الدعاء.

إنّ علاقةَ ما بينهم وبين خالقهم هي التي صنعَتْ منهم رجالاً لا يلويهم مصاب، ولا تجزعهم نائبة، وهي التي صنعَتْ منهنّ نساء؛ يملأنَ البيوت بشاشةً وسروراً، ويتحدّيْنَ الحياة صبراً وشكوراً.

كلما كانت هذه الصلة قوية ترفعت النفوس عن سفاسف الأمور، وعانقت الشيم والفضائل، ولا ريب أنّ الدعاء هو أقوى الحبال وأمتنها التي تصل الإنسان بربه، هو الحبل الذي لا يبلى، من اعتصم به،فقد فاز في الدارين، ومن رفع يَده عنه، فقد خسر في الدارين، هو حبل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والدعاء يشمل كل طاعة يخشع فيها العبد إلى مولاه، فكلما ساورته حاجة، أو حزبه أمر، أو اعتراه مرض، أو سيطر عليه بأس فرّ إلى ربه يدعوه ويستنجد به.

لا تستغرب وأنت تقرأ هذا السر، فبه اعتلى درجات المجد من اعتلى، ونال ما تمنّى واشتهى؛ هو سلاحٌ قوي من استعمله وهو يواجه حلوَ الحياة ومرّها فلا بد أن ينتصر، ومن كسلَ عنه وتراخى فلا بد أن يخفق، قال رسول الله ﷺ: «**لا تعجزوا في الدّعاء، فإنّه لا يهلك مع**

الدعاء أحد» [الحاكم (١٧٧٢)]؛ دعوةٌ إلى التزام باب الدعاء من غير ملل أو كلل، لأنه سرُّ النجاح في الحياة، وما حقق السعداء نجاحاتهم إلّا عندما تحرّروا من سجن ضعفهم وفرّوا إلى رحاب ربهم.

لا تنخدع بما يقال: إنّ ذكاء زيدٍ من الناس وعبقريته هي التي أوصلته إلى مصافِّ الأبطال الناجحين، هذا الكلام زيفٌ ووهم، ولو سألته وأجابك بصدق، لأخبرك عن هذا السر الذي أوضحته لك.

فالناجحون مع سعيهم في مناكب الأرض وأخذهم بالأسباب يلوذون دائماً بربهم، ولهم مع خالقهم وقفات من التضرع والدموع لا يراهم فيها إنسان، يستنجدون به مما حاق بهم، ويلحّون عليه بحوائجهم، ولا سيما أنّ الله يحب من عباده هذا التوجّه، ففي الحديث القدسي: «**يا عبادي! كلكم ضالّ إلّا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم**» [مسلم (٤٦٧٤)]، إنه ترحاب ليس له مثيل يغمر كل من شرد وتاه، ثم جاء إلى ضيافة الرحمن يدعوه ويتوب إليه.

أما الاستغفار، فهو العلاج الناجع، لكل من أقصاه اليأس عن خالقه وأقعده عن واجباته، هو العنوان الذي اعتدنا أن نراه في طيّات كتب القدماء، من غير أن نستعمله لما يُقْفَلُ أمامنا، ويُسَدُّ في وجوهنا.

شكا رجلٌ إلى الحسن البصري الجدوبة ـ أي انقطاع القطر ـ فقال له: استغفر الله؛ وشكا إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: أُدْعُ الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقيل له في ذلك! فقال: ما قلت من

عندي شيئاً، إنّ الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

لا تقل جرّبْتُ الاستغفار ولم تبتسم في وجهي الحياة، ينبغي عليك أن تلزمه وتداوم عليه، ثم انتظر الفرج، فلو كنت مريضاً في بدنك ـ عافاك الله وعافاني ـ لبقيْتَ في ذهاب وإياب إلى الأطباء، وربما داومت شهوراً أو سنينَ وأنت في أمل الشفاء، ولا تقول: الآن يئستُ ولن أذهب إلى الطبيب أبداً، وكذا الاستغفار، فإن كنت تلعقُ مرار الفقر، فجرّب هذا العلاج، وإن كنت تشكو قلّة المطر فاطرق هذا الباب، وإن كنت محروماً من الأولاد وتشتهي أن تسمع كلمة (بابا)، أو كنتِ محرومةً أنت من هذه الكلمة (ماما)، فدونكم هذا الطريق؛ سيروا فيه وتوكّلوا على الله، ويؤسفني أن أرى محروماً وقد ضلّ الطريق، وسار في شعاب أَقْصَتْهُ عن أمله.

اسمع إلى هذه القصة التي تدمع لها العين وتوجع القلب بقدر ما تنبهك إلى الحاجة الماسة لاستعمال علاج الاستغفار، هي قصة طبيبة كانت منذ صغرها تحلم بنيل شهادة الطب، وتحلم بعيادة تعالج فيها المرضى، وقد تحققت أحلامها، لكن اسمع ما تقول عن حياتها: الساعة السابعة من كل صباح تستفزني وتستمطر أدمعي ـ لماذا؟ ـ أركب خلف السائق متوجهةً صوب عيادتي ـ ثم تقول: ـ بل مدفني، بل زنزانتي ـ تعبّر عن عيادتها التي طالما كافحت حتى تصل إليها بالمدفن ـ وعندما أصل إلى مثواي ـ بدلاً من أن تقول: مكتبي أو سعادتي ـ أجد النساء بأطفالهن ينتظرنني، وينظرن إلى معطفي الأبيض، وكأنه بردة حرير فارسية، هذا في نظر الناس، وفي نظري لباس حِدَادٍ لي، أدخل عيادتي، أتقلّد سماعتي،

وكأنها حبل مشنقة يلتف حول عنقي، العقد الثالث ـ أي بلغت الثلاثين من عمرها ـ والتشاؤم ينتابني على المستقبل ـ . . . وأخيراً تصرخ قائلةً: خذوا شهاداتي، ومعاطفي، وكل مراجعي، وجالب السعادة الزائفة ـ تقصد المال ـ وأسمعوني كلمة (ماما)، ثم تقول هذه الأبيات:

لقد كنتُ أرجو أن يقالَ: طبيبة فقد قيل لي، ما نالني من مقالها؟!

فقل للتي كانت ترى فيّ قدوةً: هي اليوم بين الناس يُرثى لحالها

وكل مُناها بعض طفلٍ تضمُّه فهل ممكن أن تشتريه بمالها

ثم تختتم مقالها بهذا التوقيع (د. س. ع. غ. الرياض) وترسله إلى مجلة اليمامة[1].

إنها زفرات قلب محروق، لم تسعده الشهادات ولا المال، بل بقي يتطلع بأمل إلى كل طفل يمر به، قلبٌ أضلّ الطريق، فآثر الشكوى على الرضا، وآثر النحيب على الاستغفار.

إنّ مرتبة رسول الله ﷺ فوق مرتبتنا، هو أحسن حالاً منّا، اصطفاه ربّه وعصمه، ومع هذا كان يقول: «**والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة**» [البخاري (٥٨٣٢)]، وكان سيدنا علي رضي الله عنه يقول: العجب لمن يهلك والنجاة معه، فقيل: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: الاستغفار.

وأزيدك أكثر من محكم التنزيل، وليتنا ننفذ هذا الأمر جميعاً: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، والآيات والأحاديث كثيرة، تهيب بنا ألّا نيئس، بل أن نداوم على هذا الدواء،

(١) السعادة بين الوهم والحقيقة، د. ناصر العمر، ص٢٤ ـ ٢٦.

وسنرى في عاجل الزمن أو آجله حصاد هذا النداء الرقيق، النداء المشغوف بعبودية العبد وربوبية الرب، إنه نداء القلوب المنكسرة: «**أستغفر الله وأتوب إليه**»، حسبك هذا الدعاء فالزمه.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس

غيّـر حياتك

- الابتسامة
- (الروتين) المميت
- غيّر تفكيرك
- ثلاث نصائح لا تنسها

❁ ❁ ❁

الابتسامة

ما أثقل ذلك الإنسان الذي قطّب جبينه، وصعّر خده!.. وما أرق وأعذب ذلك الآخر الذي بشّ وجهه وابتسمت شفاهه!..

إنّ فرق ما بين هذين الإنسانين، هو فرق ما بين الفاشل المهزوم والمنتصر المقدام، ولا أبالغ إذا قلت لك: إنّ كثيراً من القلوب المغلقة لا يفتحها إلا مفتاح الابتسام، بالابتسام تزول من الصدور الآهات والأكدار، وتصح الأجسام من العلل والأسقام، هو أغنية الروح المعذّبة، وإشراقة العين الدّامعة.

قد يصل الابتسام إلى حد الضحك، ولا حرجَ في الضحك طالما بقي في حدود الاعتدال، من غير إسراف، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]، وقد أنشد الشاعر:

بشاشةُ وجه المرء خيرٌ من القِرى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك؟

وقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: إنّي لأضحك حتى يكون إجماماً لقلبي.

ماذا حصد العابسون وهم يشمخون بأنوفهم على الناس، غيرَ بُغض الناس وازدرائهم لهم؟!.. فالعبوس والغلظة والفظاظة، كلها مترادفات لا تجلب لصاحبها إلا الفرقة والنفور، وقد ينفر منك زملاؤك في العمل أو في الجامعة أو في المدرسة، وقد تنفر منك زوجك وأولادك، وتكون

عندئذٍ إنساناً غريباً، رضيت بوحدتك ونفّرت مَنْ هم حولك عن مكابرة عجيبةٍ ومريرة، وهي حقيقة لا ريب فيها تعرفها أنت وغيرك، والقرآن الكريم نبّه رسول الله ﷺ فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

صُمَّ أذنيك عن صوت أولئك الذين يخاطبونك بهذه الكلمات: لا تبتسم ولا تضحك أمام الناس، فينقصون من قدرك ويتطاولون عليك، وإنّ قيمة شخصيتك بتجهُّم وجهك وشموخ أنفك، إنه صوت الفاشلين الذين يبحثون عن سُبل يسدّون بها فراغ نفوسهم الظمِئة، فيسلكون هذا السلوك الخطأ.

كن كما أنت، أضْفِ على حياتك ابتسامة، واغمر قلبك بالبهجة والفرحة، ولا تلتفت إلى أولئك العابسين المعقّدين، وتأسَّ بسيد الخلق، الذي قال عنه الصحابي عبد الله بن الحارث: «ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ» [الترمذي (٣٥٧٤)]، ثم حاولْ أن تنعشَ قلبك بالأمل والسرور، بعيداً عن منغِّصات الحياة وأكدارها، ثم لتكن الابتسامة دليلاً على رضا قلبك وهناءَته كما تكون حمرة الخدّ دليلاً على الخجل، قال الشاعر:

كفاكَ منظرُهُ إيضاحَ مخبرِه في حمرةِ الخدّ ما يغني عن الخجلِ

الابتسامة: ترجمة لصدرٍ رحب، وخلق سَمح، بها تفتح أقفال القلوب، وبها تشق من الطرق ما لا تقدر عليه السهام والسيوف، طولب بها الإنسان حتى يألف جنسه من بني البشر، وأكثر من ذلك لامَ كُثَيّرٌ الشاعر جَملَهُ إذ بقي واجماً بعد أن ضحكت له عَزّة، فخاطبه قائلاً:

حيّتْكَ عَزَّةُ بالتسليمِ وانصرفَتْ
فَحَيِّها مثلَ ما حيّتْكَ يا جملُ

ليتَ التحيةَ كانت لي فأشكُرَها
مكانَ: (يا جملُ): (حُيِّيْتَ يا رجلُ)

وأختم مقالتي هذه، بأبيات من قصيدة لإيليا أبي ماضي:

قالَ: «السماءُ كئيبةٌ!» وتجهَّما
قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهُّمُ في السما!
قال: الصبا ولّى، فقلتُ له: ابتسمْ
لن يُرجع الأسفُ الصِّبا المتصرِّما!
قال: الليالي جرَّعتْني علقماً
قلت: ابتسمْ ولئن جرعت العلقما
فلعلّ غيرك إن رآك مرنّماً
طرحَ الكآبةَ جانباً وترنَّما
فاضحكْ فإنّ الشُّهبَ تضحكُ والد
جى متلاطمٌ، ولِذا نحبُّ الأنجما
قال: البشاشةُ ليس تسعد كائناً
يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مرغَما
قلت: ابتسمْ ما دام بينك والردى
شبرٌ، فإنّك بعدُ لن تتبسّما

❁ ❁ ❁

(الروتين) المميت

إنّ أثاثاً مغبرّاً يستأهل أن تتعهده ربّة المنزل بالنظافة والترتيب في صبيحة كل يوم، وإن تثاقلت أو غفلت عما ألزمت نفسها إيّاه خرج من داخلها صوتٌ عاتبٌ، لامها وأنّبها!.. أما أن يفطن كلٌّ منّا إلى صفحة قلبه فيمسح ما علق عليها من غبار الشهوات والمعاصي؟!.. فهذا من المنسيّات.

ألا تستحق النفس الإنسانية، بعد كل شوط تقطعه في حياتها، أن يتعهدها صاحبها بالتجديد والتنويع بين الحين والحين، فيعيد النظر فيها ليزيل ما اعتراها من أمراضٍ وأزمات لاقتها على وجه الأرض؟!..

لن تُفاجأ إذا قلت لك: إنّ أخطر ما تتعرض له النفس البشرية، وهي تشق طريقها في فجاج الحياة، هو مرض (الروتين)، ومردّ خطورته إلى أنه يكبتُ في الإنسان طاقاته، ويقتل مواهبَه، ثم يحبس العقل في نمط واحد من التفكير، حتى يخدّر وتصيبه البلاهة، ويقبض على القلب، فتقل نبضاته، وتتبلّد مشاعره، به يغفل الإنسان عن حياته وهي تمر، وعن أحلامه وهي حبيسة الوهم والخيال.

كل منّا يحتاج إلى التغيير والتنويع حتى يعيش حياته مفعماً بالآمال، طامحاً إلى النجاح فيها والانتصار، لا يريد أن يعيشها على نسقٍ واحد مملوء بالضّجر والملل، يذهب إلى عمله في وقت محدد، وتمضي

ساعات العمل على وتيرة واحدة في كل يوم، ثم يعود في وقت محدد، وهكذا دواليك، يكرر كل يوم ما فعله في الأمس، ثم لا يجد من مديره إلا الغلظة والجلافة بدلاً من التشجيع والتحفيز، بدلاً من تنويع مادة العمل وطرائقها، ثم بعد حين، يقل إنتاجه، ويملُّ عمله، ويشعر أخيراً بأنه معطّل العقل والروح معاً، فهو كآلة تؤدي عملها كل يوم من دون إحساسٍ أو شعور.

لقد عالج الإسلام هذه الظاهرة التي تجتاح العالم منذ ولادته في شبه الجزيرة العربية، فدعا إلى التنويع والتجديد، وغايرَ بين الزمان والمكان، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وغايرَ بين العبادات والطاعات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وغاير بين الألوان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

وغاير بين الزروع والثمار، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤].

وغاير في الحركات، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]...

إنّ العمر الذي يسير على نسقٍ واحد هو عمرٌ ميّت لا طائل منه، يعيش صاحبه مسجوناً في (روتينه)، مالّاً لمكانه وزمانه، معرِضاً عن

نصيحة رسوله ﷺ: «**ساعة وساعة**» [مسلم (٧١٤٣)]، وفي حديث آخر: «**روحوا القلوب ساعة وساعة**» [الديلمي (٣١٨١)]، والإمام الشافعي يقول:

والشمسُ لو وقفتْ في الفلك دائمةً لملّها الناسُ من عَجم ومن عرب

ومن إدراكنا لهذا الخطر الذي يهدد وقتنا وجهدنا، لا بل يهدد عمرنا كله لا بد أن نتخلص من (روتين) أنفسنا، الذي يثقلنا باليأس والكسل.

فينبغي على الآباء والأمهات أن يفتحوا لأولادِهم سبلاً جديدةً في حياتهم؛ بأن يقدّموا لهم موادَّ متنوعة متغايرة تضفي على حياتهم رونقاً بهيجاً للتفاؤل والأمل.

وينبغي على مدير المدرسة أن يغير من معاملة جهازه التدريسي، فيشجع المعلمين ويكرمهم بين الحين والآخر، ويشاورهم ويجتمع بهم، ويسمع منهم، على أنه زميل لهم لا رئيس عليهم، ثم يعملوا جميعاً على استخراج مواهب طلابهم وتَنميتها، وعلى استخراج طاقاتهم وتفريغها، فضلاً عن الالتفات إلى الجانب المعنوي والأخلاقي في حياتهم.

وينبغي على مدير المؤسسة أو الشركة، أن ينشّط ويجدّد حياةَ موظفيه بأن يكافئهم، ويسمع شكواهم، ويشعرهم بأنّه معهم دائماً لا عليهم، وأنه مع كل جديد يرفع من مستوى إنتاجهم، ويبعث فيهم روح التفاؤل الذي يعشق الجديد.

الحياة جميلةٌ بتنوعها، مملّةٌ بـ (روتينها)، لا تستبين معانيها إلّا بوجود الأضداد وباختلاف الأزمنة والأمكنة، قال الشاعر:

تجمّعن من شتّى ثلاثٌ وأربعٌ وواحدةٌ حتى كَمُلْنَ ثمانيا

سليمى وسلمى والرّبابُ وأختُها وسُعدى ولبنى والمنى وقطاميا

غيّـر تفكيرك

أتعلم ما الذي يجعلُ الإنسان سعيداً أو شقيّاً؟!.. إنّها أفكاره التي تدور في رأسه، فإن كانت أفكاراً إيجابية مشحونة بالأمل والطموح، مصبوغة بالسكينة والانتعاش، فلا ريب سيكون صاحبها من سعداء الناس، وإن كانت أفكاراً سوداوية مشحونة باليأس والإحباط، يلفّها الإخفاق والألم، فلا بد أن يكون صاحبها من أشقياء الناس.

فالسعادة التي ينشدها كلُّ إنسان، متوقفة على ما يدخل عقله من أفكار، وفي إمكانه مع الممارسة والصبر، أن يستقبل ما صحَّ وجَمُلَ من الأفكار، وأن يستبعد ما غَلُظ وقَبُح منها، وإلّا لما أسند الله عز وجل هذه القدرة إلى الإنسان نفسه، بقوله في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إذاً، أنت الذي تلوّن حياتك بمنظارك الخاص، فإذا استجلبت فكراً خبيثاً أسودَ، فلا بد أن يشقيك هذا الفكر ويجعلك تعيساً بائساً، وإن استجلبت فكراً صالحاً نيّراً، فسيحوِّلك إلى إنسان سعيدٍ وديع، والشاعر يقول:

لا تُـعِـدْ قـصـةَ الـفـراق كـثـيـراً وتـسـلَّ عـنـهـا تـجـد نـفـسَـكَ سـالـي

عادَ النبي ﷺ أعرابيّاً يئن من شدّة الحمّى، فقال له مواسياً: «**طَهورٌ إن شاء الله**»، فقال الأعرابي: كلّا؛ بل هي حمّى تفور، على شيخٍ كبير،

تُزيره القبور، قال: «**فَنَعم إذاً**» [البخاري (٦٩١٦)]، أي: فلتكن إذاً كما وصفتها، طالما يلفّك اليأس، ويغذي فكرك السخط والتذمر.

إنها حقيقة يؤكدها علماء النفس والتربية، فهم يتفقون على أن معظم الأمراض النفسية الناجمة عن ضغوط الحياة وأحداثها، إنما هي في الأصل نتيجة لأنماطٍ خطأٍ في التفكير، قال الإمبراطور الروماني (ماركوس أورليوس): إن حياتنا من صنع أفكارنا. وتساءل (إيمسون) قائلاً: نبّئني ما يدور في ذهن الرجل أنبّئك أي رجل هو.

أجل، إنّ تفكير الإنسان ينبغي أن يناسب كل مرحلة من مراحل حياته وإلا عِيبَ عليه ذلك، واتهم بعقله، وينبغي أن يتجه هذا التفكير نحو الخير والصلاح، فالمرء كما يفكر يكون، فقد يفكر بالخبث والشغب في وسط مجتمعٍ راقٍ وفاضل، وقد يفكر بالخير والجمال، في وسط تحكمه العصبية ويسيطر عليه الفساد.. إذاً فمردّ سعادةِ الإنسان أو شقائه الوسط الداخلي الذي يعيش معه، وليس الوسط الخارجي الذي يعيش فيه.

(رادكليف)[1]؛ كاتبة إنكليزية، اشتغلت بتصنيف قصص على طرازٍ جديد لم يعهده الغرب من قبل، كان الهدف من قصصها هو بثّ المشاعر الشديدة في النفس، كالرعب والهول وغوامض الأسرار والأمور العجيبة، فالذي يقرؤها يتخيل نفسه مُحاطاً بالأشباح الوهمية، والأرواح الجهنمية، وفي آخر حياتها وقعت في شر ما اقترفت يداها، انتهى بها الإيحاء القوي الذي كانت تمتلكه، والخيال الواسع الذي حازته إلى اختلال عقلها.. أتعلم ما سبب هذا الاختلال؟.. إنّ سببه هو ما كانت تستجرّه هذه

(١) دائرة معارف البستاني: ٨/ ٤٦٠.

الكاتبة من أفكار إلى مخيلتها، حتى جنَتْ على نفسها براقش كما يقال.

وهنا أحذّر عشاق ما يسمى اليوم بـ (أفلام الرعب) الذين يلهو بهم الفراغ ـ والفراغ ولا غير ـ وأدعوهم إلى أن يُعرضوا عن هذا النوع من الأفلام، الذي يخرج الإنسان من دائرة الإنسانية، ويدخله في عالم الخيالات والأشباح، ويختم عليه بالكآبة والقلق بعد أن يشلّ تفكيره، فيصبح عاجزاً عن استقدام أي فكرة أو استبعادها، وكذلك لن أنسى أن أنبّه الأم التي تخطئ كثيراً عندما تقص لأطفالها قصصاً مرعبة (كالغول والعنقاء والوحش وغيرها)، وربما هددت طفلها بتلك الأسماء المخيفة إذا ما عاندها أو خالف أمرها.

وعليك أن تعي أن المظلّة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن يتحكم بأفكاره في ظلها، بكل ثقةٍ وحرية، هي مظلّة الدين، إنها المظلّة التي تترك لك الخيار، في تصفية أفكارك، فتطرد الرديء منها، وتبقي على الصافي والجميل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

❋ ❋ ❋

ثلاث نصائح لا تَنسها

الأولى: (مظهرك الأنيق):

حتى تصفو نفسك ويروق مزاجك، لا بد أن تهتم بظاهرك، فالثوب النظيف، و(الهندام) الأنيق، والشعر المسرّح، والنعل الجديد مفاتيح لنفسية جديدة، يشعر معها صاحبها بأنه ولد من جديد، وأنه يستطيع أن يبدأ حياته من جديد؛ رأى النبي ﷺ رجلاً وسخة ثيابه فقال: «**أما وجد هذا ما ينقي ثيابه؟!..**»، ورأى رجلاً ثائر الشعر، فقال: «**ما وجد هذا شيئاً يسكن به شعره؟!..**» [مسند أبي يعلى (٦٠٢٦)].

إنّ تغيراً بسيطاً في كيان الإنسان سيظهر بالتأكيد على ظاهره وكذلك العكس، فلو طرأ تغير في ظاهر الإنسان، كتعهّدٍ بالاغتسال، وتجديد وتنظيف للثياب، وتقليم الأظافر، وتسريح الشعر، فسيتأثر الباطن ويصفو الفكر وينتعش الخاطر.

إنّ أوّل من أهاب بالناس إلى النظافة والأناقة، هو هذا الدين الأغر الذي قال مشرّعه جل وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال في موضع آخر: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال أيضاً جل وعلا: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [صَ: ٤٢].

وجاء في الحديث: «**إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال**» [مسلم (١٣١)]، وفي حديث آخر: «**إن الله طيّب يحب الطيّب، نظيف يحب النظافة**» [الترمذي (٢٧٢٣)].

وقد وجّه الرسول الكريم ﷺ أصحابه ومن تبعه إلى النظافة والتأنّق فقال: «**فأحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم؛ حتى تكونوا كأنكم شامة بين الناس**» [الحاكم (٧٤٧٧)].

إنّ أدنى مدة للاغتسال هي سبعة أيام، أخْذاً من الحديث: «**حقّ على كل مسلم أن يغتسلَ في كل سبعة أيّام يوماً، يغسل فيه رأسه وجسده**» [البخاري (٨٤٧)]، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يغتسل كل يوم.

أما الثياب فلا بد من تنظيفها وترتيبها، وصَدَقَ من قال: (من اتسخ ثوبه تكدرت نفسه)، ويجب أيضاً أن يبذله للمحتاجين من غير تكديس في الرفوف بلا استعمال.. وكذلك يجب استعمال الطيب وتخليل الأسنان، فهذه الأفعال تشرح الصدرَ وتسرُّ الخاطر.

الثانية: (سافر وتنقّل في الأرض):

لا أحد يستطيع أن ينكر قوة تعلق الإنسان بمسقط رأسه وأرض طفولته وبالمجتمع الذي عاش فيه حلو الأيام ومرّها، وبأقرانه وذكرياته الخالية، غيرَ أنّ هذا التعلّق لا يفرض على الإنسان أن يبقى حبيس المكان، لا يهجره ولا ينتقل إلى غيره، بل على العكس، كثيراً ما يتحول هذا التعلق إلى نفور، ولاسيما عندما يتعمق الإنسان في مجتمعه، ويتبع فيه (القال والقيل)، ويراقب الشاردة والواردة، فيشمت بالمنكسرين ويحسد المنعّمين، وينتهي به المطاف إلى كراهية المجتمع وكراهية المكان، وذلك كله بسبب الالتصاق بالناس وبالمكان، فتغيير المكان، والتنقل في الديار، ومعرفة الوجوه الجديدة، ذلك كله يبعث السعادة في نفس الإنسان، فيداوي جروحَ ماضيه الأليم، ويحل مشكلات حاضره المعقّد.

تقع بالقرب من شواطئ كولومبيا البريطانية جزيرة صخرية خالية من

الناس، ولا يقطنها إلا طائر وحيد يسمى (الببغاء الملون)[1]، فإذا حاولتَ أن تبعده عنها، يموت في حينه، فلا تكن مثله، تسجن نفسك في مكان واحد في الأرض، وكن كطائر السنونو الذي يدور حول الأرض كل عام.. يقول الأديب الفرنسي (فيكتور هيجو) شعراً:

كالطائرِ كنْ أنت
إنْ أصابَه الإعياء
حطّ فوق أغصانٍ طريّة
هي لا تكادُ تحمله.. إلّا أنه يغرّد
فهو يملكُ أجنحة

قال تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ آياتٌ تدعوك إلى التنقل والأسفار، فتكون كالماء السائح الطاهر لا كالماء الساكن الفاسد، قال الشاعر:

تغرَّب فالتغربُ فيه نفعٌ وشرّق إنْ بريقك قد شَرِقتا

إنّ تفريغ الرئتين مما علق بهما من غبار الزحام ودخان المركبات، لا يمكن إلا بفسحةٍ أو نزهة في طبيعة ذات نسيم عذب، وهدرة ماء رقراق، وحلة نديّة خضراء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال

---

(١) أفكار للحياة، لماكسويل مولتز، ص٥٢.

تـعـالـى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤].

إنّ جولةً في بستان وارف الظلال، تتمايل على جنباته أزهار متنوعة بهية، قد يصفّي ذهنك ويغير مجرى تفكيرك، والقدماء كانوا يقولون: الحركة وَلود والسكون عاقر.

قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما للمسافر لأصبحوا على ظهر سفر، إن الله عز وجل ينظر إلى الغريب كل يوم ألف مرة**» [الديلمي (٥٠٥٠)].

وكان الخليفة العباسي (المأمون) يقول: لا شيء ألذّ من السفر في كفاية وعافية، لأنّك تحل كل يوم في محلةٍ لم تحل فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم، قال الشاعر:

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدَبِ
من راحة فَدَعِ الأوطان واغترب
سافر تجدْ عوضاً عمن تفارقه
وانصَب فإنّ لذيذ العيش في النَّصَب
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يفسدُهُ
إن ساحَ طابَ وإنْ لم يجرِ لم يطب
والأسد لولا فراقُ الأرض ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب

فالسفر يطيّبُ الخواطر، ويجدِّد الأفكار، ويخرج الإنسان من سجن اليأس والإحباط إلى شمس الأمل والسرور.

الثالثة: (مارس الرياضة):

حقيقةٌ يعرفها الجميع، لكن لا ينفذها إلّا القليل، إنها الرياضة، منتديات تعقد، وأطبّاء يتحدثون، والجميع متفقون على أهمية ممارستها.

إنّ ممارسة نوع واحد من الرياضة، قد يقي الإنسان من أمراضٍ كثيرة لا تنفع معها (صيدلية) أدوية، فهي التي تنشّطُ الدورة الدموية، وتنظّم حركة القلب، وتجعل البدن رشيقاً، معتدلاً في مخزونه الحراري، وبها يتخلّص الجسم من فضلاته ومكروباته المعقدة.

لنا في القرآن دروسٌ في الحث على ممارسة الرياضة، والتأهيل والتأهب لمواجهة أعداء الجسم وأعداء الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والعدّة تكون بوجودها والتعلُّم على ركوبها.

وجاء في الحديث: «**علموا بنيكم السباحة والرمي**» [المقاصد الحسنة (٧٠٨)]، وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الشام أن علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية، فالسباحة رياضة تحتاج إلى جهد، تنمي به العضلات وتقويها، وتجعل الجسم رشيقاً، أما الرماية فهي لا تقل أهمية عن سابقتها، تقوي من معنوية صاحبها، وتصنع منه رجلاً، يستطيع الدفاع عن نفسه وأهله ووطنه، وكذا ركوب الخيل يبعث في النفس الثقة والشجاعة، ويجعل من صاحبه قيادياً باسلاً.

وهذه الرياضات أمثلة عن رياضات كثيرة، يجب على كل إنسان أن يمارسَ منها نوعاً على الأقل.

إن الدين الحنيف هو أول من دفَع أبناءَه إلى ممارسة الرياضة، حتى يصنع منهم رجالاً ونساءً يطهرون بواطنهم بالإيمان ويعمرون ظواهرهم

بالرياضة والجمال، قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**» [مسلم (٤٨١٦)]، وكان رسول الله ﷺ يمارس رياضة الجري كما قالت عائشة رضي الله عنها: «فسابقتُهُ فَسَبَقته على رِجْليَّ، فلما حملتُ اللحمَ سابقته فسَبَقني، فقال: **هذه بتلك السبقة**» [أبو داود (٢٢١٤)]، وفي رواية أخرى: «فضربَ بين كتفيّ، وقال: **هذه بتلك**» [الطبراني في الكبير (١٨٦٥٣)]. .

أخيراً، قد تفلح الرياضة في التخفيف من ألم اليائس الخائب، وما الرياضات الحديثة كـ (الرقص) و(البرمجة العصبية) و(التنفس بعمق) إلا محاولات لتخليص الإنسان من غضبه وهمه من جهة، ومن يأسه وإحباطه من جهة أخرى.

❋ ❋ ❋

الفصل السادس

الناجحون في الحياة

- التشجيع وأثره في النفس
- عندما تؤمن بالله
- الشعور بالنقص وتحويل الهزيمة إلى نصر
- بين الرضا والسخط
- ثلاث خطوات لا يقدر عليها الجبان

❁ ❁ ❁

التشجيع وأثره في النفس

إن أكثر ما تحسّرْتُ عليه في حياتي، وأنا أقلّب صفحات التاريخ، هو صفحات لعباقرة قد مرّغتهم يد اليأس والإحباط، فأقعدتهم عن السير وعطّلت مواهبهم، وإنّ هذه اليد المحبطة قد تكون يد الأهل والأقربين، قبل أن تكون يد الناس؛ كم من ذكي نابغة أزرى به ذووه، وأطفؤوا شعلةَ نبوغه واجتهاده، فماتت أحلامه وهي في بواكيرها كما تموت البراعم فور بزوغها، يا للحيف والأسف على مواهب تخمد، وإبداعات تتجمد، ويتسلّم الطريق أناسٌ يزعمون الإبداع، ويكتبون في الأدب ويقرضون الشعر، وهم ليسوا أهلاً لهذه الفنون، لكن بضاعتهم تربح وجهودهم تُحمد!..

ابتعد عن الذين يحبطون عزيمتك، ويفترون إصرارك، فهم أعداؤك فاحذرهم، هم الحاسدون الحاقدون الذين يبخسون النّاس أشياءَهم، فيستخفّون بإنجازاتهم، وينقصون من قدرها، لا لشيءٍ إلّا لعينٍ حاسدة أو قلب حاقد مريض، معرضين عن هذا النهي القرآني: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

إنّ كلماتٍ مفعمةً بالتشجيع، مصبوغةً بالإصرار والتحدي، قد تصنع في النفس ما لا تصنعه الملايين ولا القصور، وقد تبعث فيها من الأمل ما لا يقدر عليه الأطباء والعقاقير، قال تعالى منبّهاً على هذه الحقيقة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى

ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

أرأيت إلى هذه الكلمات، التي أطلقتها أمُّ المؤمنين (خديجة رضي الله عنها)، تعزِّي بها المصطفى ﷺ من جانب، وتشجعه من جانب آخر: «أَبْشِرْ يا بن عمّ واثبُتْ، فوالّذي نفْسي بيده، إنّي لأَرجو أن تكونَ نبيّ هذه الأمة» [فتح الباري (٤٦٧٠)]، إنّها كلمات تفعل بالنفس البشرية ما تعجز عن فعله المنعشات وأدوية الاكتئاب، فهي لم تَلُمْهُ ولم تعاتبْهُ ولم تقلْ له: كان عليك ألّا تخرج من منزلك إلى ذاك الكهف الخاوي.

وهذا أبو أمامة رضي الله عنه يجلس في المسجد حزيناً لدَينٍ لزمه وهمٍّ ركِبَه، فيقول له الطبيب ﷺ: «**أَلا أعلّمُك كلاماً إذا قلته أذهَبَ اللهُ عز وجل همَّك، وقضى عنك دينك؟**» يقول: بلى يا رسول الله، يقول عليه الصلاة والسلام: «**قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهْرِ الرّجال**»، يقول: ففعلت ذلك، فأذهَب الله عزّ وجل همي وقضى عني ديني. [أبو داود (١٣٣٠)].

ترى هل هذه الكلمات بحد ذاتها تقضي دينَ المدينين وتُذْهِبُ هم المهمومين؟!.. أبداً، إنّ هذه الكلمات لا تعدو أن تكون منبهات لمعنوياتٍ غافية، ومقدّمات لنفسية جديدة، نفسية يملؤها الأمل، الذي يغيّر حال صاحبها، فيدفعه إلى أن يحسن الظنّ بربّه ويتوكّل عليه، فيعينه على مصابه، إنها أمدادٌ دافقة، تسير في عروق اليائس، فتصنع منه رجلاً شجاعاً.

«**كأني بك قد لبست سوارَيْ كسرى**» [السنن والآثار للبيهقي (٤٢٠٢)]؛

كلماتٌ يقولها المصطفى ﷺ وهو طريدٌ مطلوبٌ لعدوّه، كان إمساكه قاب قوسين أو أدنى، اللهُ وحده مَنْ يعلمُ ماذا فعلت هذه الكلمات بنفس ـ من كان طريده للتوّ ـ (سراقة بن مالك) ـ وهو يعود أدراجه بعدما ساخت قوائم فرسه وعلم الحقيقة، وبعدما أدركته رحمةُ الله وشفقة رسوله.

وأزيدك أكثر، كان المسلمون يفكّرون في الخلاص وحماية أنفسهم، وهم يحفرون خندقاً حول المدينة، ورسول الله ﷺ يحفر معهم ووجهه يقطر عرقاً وبطنه يتضوّر جوعاً، في تلك اللّحظات التي تخور فيها عزائم ذوي الهمم، وتضعف فيها معنويات الأبطال، ينبثق من منبع النبوة نورٌ يشق ظلام اليأس، يشرق على صفحة سماوية، كتب عليها: «**...الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام... الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس... الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن**» [مسند أحمد (١٨٦٩٤)]، ضرباتٌ ثلاث على صخرة صماء في قعر الخندق، يستبشر الرسول بها فتحاً مبيناً، في حين كان يقول أرباب النفاق واليأس في ضيقٍ وحنق: إنّ محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يأمن الخروج إلى الخلاء وحده!..

وأزيدك إن شئت، كلمة خالدة آتَتْ ثمارها وأكلها في نفسية أولِ شهيدة في الإسلام (سمية بنت النجار) أمّ عمار بن ياسر رضي الله عنهم ـ فهوّنَتِ الصعاب وغيرت موازين النفس، من نفسٍ قاربت الاستسلام إلى نفسٍ تسامَتْ عليه، وعلى ظلم الجاهلية، بكلّ إصرارٍ وثقة، إنها كلمة رسول الله ﷺ: «**صبراً يا آل ياسر، إنّ موعدكم الجنّة**» [الحاكم (٥٦٦٢)].

هذه أمثال سقتها لك من عصر النبوّة، أستدل بها لأفتح عينيك على عالَم عاشَ بروح التشجيع والإقدام، إنه العالمُ الذي غضضنا الطرف عنه وتجاهلناه، هذا وفينا من أبصره، لكنّه استخف به، وبخسه حقه.

إنّ العالَم الذي تعيش فيه، إنما هو عالم يبدأ من البيت الصغير الذي رتّبته الزوجة، وأنّقت أثاثه، ثم تعطرت وتزينت لزوجها، واستقبلته بكل ترحيب وحفاوة، لكنه تعامى عن كل هذا، ودخل بيته كالح الوجه، مطبق الشفاه.. وينتهي بالأمة الكبيرة، التي هجّرت أبناءَها، واستخفت بإبداعاتهم، وبخست مواهبهم، ثم استقبلهم الغرب خيرَ استقبال، فقدّر علمهم ومواهبهم، ووظفها لمصلحته.

هذه حالنا ـ وللأسف ـ عندما ينفرُ منا الأقربون، ويستهين بنا أبناءُ جلدتنا يحضِنُنا الغُرباء، لكن إذا لم يحضنَّا أحد، فالمشتكى إلى الله تعالى، ذكر الطنطاوي رحمه الله هذه القصة، اسمعها، إنها ذات عِبرة بليغة: ..وها هو العلّامة المرحوم سليم البخاري ـ الشامي ـ مات وما لَهُ مصنف، رسالةٌ فما فوق، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدّة بيانه، وسبب ذلك: أنه صنّف لأول عهدهِ بالطلب ـ أي طلب العلم ـ رسالةً صغيرة بالمنطق، كتبها بلغةٍ سهلةٍ عذبة تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعَرَضها على شيخه، فَسخر منه وأنَّبه، وقال له: أيها المغرور! أبلَغَ من قدرك أن تصنف وأنت.. وأنت.. ثم أخذ الرسالة فَسَجَر بها المدفأة!.. فكانت هي أول مصنفات العلّامة البخاري وآخرها![1].

هذا، والتشجيع يشمل كل مجالات الحياة، فيشمل جميع المواهب التي وزعها الواهب على بني البشر، ففي بعض البلدان المتقدمة يدخل الطفل على قاعة فيها ألعاب واختصاصات متنوعة فإذا ما مال إلى إحداها أهِّل له وشجع عليه.

---

(١) فكر ومباحث، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

هذا وقد عرفت ما يصنعه التشجيع في النفس، وما يتركه الإحباط من أثر، فكن في مجتمعك عضواً مشجعاً نافعاً؛ إن لم يكن بالمال فباللسان، ولا تكن عضواً محبطاً ضارّاً، ولا عضواً مشلولاً مهملاً.

❁ ❁ ❁

عندما تؤمن بالله

قد يستعظم ثلة من السيّاح تاجاً، أو خاتماً، أو رسماً على صخرة، وجدوه وهم ينقّبون عن الآثار يعود أصله إلى حضارة قامت قبل آلاف السنين ثم بادت، فيبادرون إلى تصوير ما وجدوه وتدوينه، معتمدين على ما يسمّى (قانون التوسّم والاسترداد) ـ وهو ما يسمّى عند العرب والمسلمين: الفراسة، وهي لا تغني عن اليقين شيئاً ـ ثم يبنون على هذا الأثر الذي وجدوه مطموراً في طبقات الأرض قناعات تؤكّد وجود حضارة ذات عراقة وامتداد، في حين يضيق هؤلاء السيّاح ذرعاً بالاعتراف بوجود إلٰه خالق تشهد له كل مخلوقاته ـ بما فيها أولئك الذين يلحدون ـ فهم آثارٌ لخلق الله، لكنَّ إلحاداً مرّاً يعمي القلوب التي في الصدور، فلا ترى إلّا ما تهوى وتشتهي.

دقّق في المخلوقات، لتجدها على ترتيبها ونظامها المهذّب محتاجةً في كلّ لحظة تمر بها إلى الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

عندما تؤمن بالله تهون عليك المصائب، وتفرّج عنك الكروب، ويزول أَسَاكَ وحزنك، لأنك عندئذٍ تترك الأمور لربّ الأمور، فتسعى في رزقك، وأنت على يقين أن من وراءِ هذا السعي رزّاقاً كريماً، يهيب بك في كل لحظة أن تتوكل عليه، جاء في تفسير ابن كثير أنه قد ورد في بعض

الكتب الإلٰهية: يقول الله تعالى: «**ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفّلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتك فاتك كلّ شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**»[1].

عندما تؤمن بالله يخفُّ حِمْلُك، لأنّ هناك من يحمل عنك، إنّه وليّك ووليّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

عندما تؤمن بالله تعلم أنّ الله لا يأتي لحياتك إلا بما يصلحها، فكلّ ما يصيبك من غير اختيار لك فيه هو إصلاح من حيث تدري أو لا تدري، فأنت صَنعة الله، ومن ذا الذي يتلف صنعته؟!.

الإيمان بالله يمتاز بأنّه يزيل الهمَّ والغمّ من حياةِ الإنسان، فالمؤمن لا ييئس إن منعه الناس، ولا يجزع إن خانوه، لأنه يعتمد على مسبّبِ الأسباب ومدبّر الأمور، لسانُ حاله يقول:

واشدُدْ يديكَ بحبلِ اللّه معتصماً فإنّه الركنُ إن خانتْكَ أركانُ

لا راحة إلّا بالعودة إلى الله تعالى، فهو الملاذُ والمعاذ، حقيقةٌ لا مريةَ فيها، يعرفها كل مؤمن تذوّق طعم الإيمان، ولقد تنبّه إلى هذه الحقيقة أناسٌ تابوا بعد طول شرود، أذكر لك على سبيل المثال بعض الشخصيات اللّامعة:

الممثل المغربي (سعيد الزياني)، يقول عن حياته: «كنت أحلم بشيئين وأنا في سن المراهقة: الشهرة والمال، فأصبحت ممثلاً ومغنياً ونلتهما.. أركب أفخم السيارات وألبس أغلى الملابس وأتنقل بين

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٢٦.

القصور التي تفتح لي أبوابها، وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر بالتعاسة والشقاء، وفي يوم أجرى معي صحفيٌّ لقاءً طويلاً، وكان من بين الأسئلة التي وجهت إليَّ هذا السؤال: الفنان سعيد الزياني، من المصادفات أنّ اسمك ينطبق على حياتك، فاسمك سعيد وأنت سعيد،ما تقول في ذلك؟.. كان الجواب: في الحقيقة إنّ ما تعتقده ويعتقده كثير من الناس غير صحيح، فأنا لست سعيداً في حياتي، واسمي في الحقيقة لا يزال ناقصاً، فهو يتكون من ثلاثة حروف (سعي)، وأنا ما زلت أسعى باحثاً عن الحرف الأخير، وهو حرف الدال ليكتمل اسمي وتكتمل سعادتي، وإلى الآن لم أجده، وعندما أجده سأخبرك.. وبعد فترة يذكر أنه عرف أن السعادة ليست في ذلك المتاع الزائل، ثم يقول: أرسلت رسالة إلى الصحفي أجبته بالجواب التالي: وعدتك متى وجدت حرف الدال المتمم لاسمي أن أخبرك، والآن يطيب لي ويسعدني ويشرفني أن أخبرك بأني قد وجدت حرف الدال وجدته في (الدين والدعوة) وأصبحت الآن سعيداً حقّاً»[١].

وهذا منشئ أضخم مؤسسة تجارية في العالم (هنري فورد)، بعد بلوغه السبعين من عمره، سُئِل مرةً: هل عانيْتَ القلقَ؟ فأجاب: لا، فإنّني أعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى قديرٌ على تصريف الأمور، وأنه ـ تعالى ـ في غير حاجة إلى نصيحةٍ مني، لهذا فأنا أترك له تصريف أمري بحكمته جلّ شأنه، فعلامَ إذن يتولّاني القلق؟!..

وخذ مثالاً آخر، هي قصة الكاتب الأمريكي (ر. ن. س. بودلي) صاحب المؤلفات الشهيرة كـ (الرسول ﷺ) و(رياح على الصحراء)، إذ

(١) التائبون إلى الله، للحازمي، ص٢٧٠ ـ ٢٧٣.

عاش هذا الرجل سبعةَ أعوام مستوطناً في إفريقية الشمالية الغربية مع قوم من الرحّل البدو المسلمين، وقد وصف بعض ذكرياته معهم قائلاً: هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعَبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة شديدة الحرارة، حتى أحسست أن شعرَ رأسي يتزعزع من منابته لفرطِ وطأة الحر، وأحسست من فرط الحر كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكنّ العرب لم يشكُوا إطلاقاً، فقد هزّوا أكتافهم وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاءٌ مكتوب)، وما إن مرّت العاصفة، حتى اندفعوا بنشاطٍ كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يوديَ الحرُّ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمتٍ وهدوء، دون أن تبدوَ من أحدهم شكوى، قال الشيخ رئيس القبيلة: لم نفقد شيئاً يذكر، فقد كنّا خليقين بأن نفقد كلَّ شيء، ولكن الحمد لله والشكر، فإنّ لدينا نحو أربعين في المئة من ماشيتنا، ونستطيع أن نبدأ بها عملنا من جديد.

ثم يستأنف حديثه فيقول: لقد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعرابِ الرّحل، أنّ الملتاثين ومرضى النفوس والسكّيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبة ما هم إلّا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

ثم يختم تجربته بهذه الكلمات: إنني ـ بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء ـ لا أزال أتّخذ موقف العرب حيالَ قضاء الله وقدره، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكّنات والعقاقير[1].

---

(١) انظر: دع القلق وابدأ الحياة، ص٣٩٥ ـ ٣٩٨.

ترى هل هي الصحراء، بكثبانها الرملية ورياحها الكاوية، هي مَنْ غيَّر نفوس هؤلاء العرب المسلمين حتى واجهوا تلك الفاجعة بكل رضا واستسلام؟! . . وهل هذا هو السبب الذي جعلهم مُتَّزنين؛ لا عصبية تفور في دمائهم، ولا ثائرة غضب تنفخ أوداجهم. . حتى قالوا: قضاء مكتوب؟ . . وإن كان الأمرُ كذلك، فلماذا إذاً لم تفعل الصحراء فعلها بنفوس قريش الهائجة، وتلفّهم بلحاف الرضا والهدوء؟! . . أبداً، ليس السبب طبيعة المكان بل طبيعة الإيمان، الإيمان الذي لا يزيده الزمان في نفوس العائدين إلى محرابه إلّا ثباتاً وقوة، الإيمان الذي عناه ذلك الكاتب الأمريكي عندما قال: «كانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحّل من أمتع سني حياتي وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة»[١].

ومن أمثلة هؤلاء بطل الملاكمة (جاك دمبسي)، فهو لا يأوي إلى فراشه قبل أن يتلو صلواته، ولا يتناول طعاماً حتى يحمد الله الذي وهبه إياه.

وكذا (إدوارد استيتنيوس) المدير الأعلى لشركة (جنرال موتورز) ووزير خارجية أمريكا سابقاً، كان يصلي ويبتهل إلى الله أن يهبه الحكمة والسداد.

لقد أدرك هؤلاء ـ كما أدرك غيرهم من العقلاء ـ أنّ المنقذ لغربِهم هو الله، وأن كل موجود مفتقر إليه، وأنهم كما قال الشاعر:

كلّهم سائلٌ وأنت مجيب   تلك نُعماك ما لها من نفاد

هل سَعد الملحدون بإلحادهم، وهم يسيرون في فجاج الحياة؛

---

(١) المرجع السابق نفسه.

تائهين حيارى، يتولّاهم الشيطان، وينفخ فيهم نارَه، وعما قليل يتبرأ منهم، ويقول لهم كما أنبأنا الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، إنها لعنة إلحادٍ أبدية، وتخلٍّ سافلٍ ولئيم.

لا تتوهّم أنك قويّ وقادر، فأنت لا تستطيع أن تدفع أي مرضٍ قد يهجم عليك من كل خلية في جسمك، فضلاً عن أنك لا تستطيع أن تعيد ما تسلبه منك ذبابة حقيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

إنّ حدثاً واحداً يمرُّ على شخصين اثنين، أحدُهما مؤمن والآخر ملحد، فالمؤمن يقول: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، والملحد يفزع ويضطرب ويهيم على وجهه من غير معين أو ملاذ، والسبب أن هذا الحَدثُ أو المصاب يتسلّل إليه الإيمان فيحيله صغيراً تافهاً في عين المؤمن، أمّا الملحد فعلى الخلاف، يعظّم إلحادُه في عينيه صغائر الأمور، والفارق هذا كما قال الشاعر:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
وتعظمُ في عين الصغيرِ صغارُها   وتصغرُ في عين العظيمِ العظائمُ

لا يخدعنك الثراء الفاحش، ولا القصر المرصّع المنيف، ولا المال المكدّس الوافر، فكل هذه المظاهر لا تنفع قلباً ضعيف الإيمان، بل على العكس؛ قد تزيده طمعاً وجشعاً، وإن بدا لك أنيق المظهر، تغشى فمه ابتسامة عريضة، وهو يركب (سيارته) الفاخرة، إنه الرجل التعيس.

إنّ سر سعادة الإنسان هو رصيد ما في قلبه من إيمان، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]..

واسمعْ إلى تلك الكلمة الخالدة التي خرجت من قلب معمورٍ بالإيمان، إنه قلب الرجل الصالح (إبراهيم بن أدهم) رحمه الله: «لو علم الملوك ما نحن عليه ـ أي من حلاوة الإيمان ـ لقاتلونا عليه بالسيوف».

* * *

الشعور بالنقص، وتحويل الهزيمة إلى نصر

أصعب شيء على النفس أن تنهزمَ أمامَ شعورها بالنقص، وتسقط بين يدي الواقع وتحدّياته، فترى في جماله عين القبح، وفي حلاوته مراراً وضيقاً، ولن ينفعها عندئذٍ أن تقول: الحمد لله أنا راضية، وهي في حقيقة أمرها طافحة بالسّخطِ والتذمر.

إنّ العقلاء هم الذين يحوِّلون هزائمهم فتوحات، ومصائبهم منطلقات، ينطلقون منها إلى مستقبل باسم مشرق، والأغبياء هم الذين يعظمون سفاسف الأمور، ويحوِّلون مصائبهم إلى بركان من الحزن والأسى، يبقى مشتعلاً في قلوبهم مدى الحياة، فتضج الأرض بشكواهم، ويكاد عدوّهم يرأف بهم؛ وهم ينوحون على مصائبهم، فواحدهم يتهم الحياةَ، والآخر يلعن الزمان، ومنهم مَنْ يشتهي الموت، وكلهم في الواقع ناقمون على حظوظهم، متقزِّزون مما قضي لهم وقدّر عليهم.

أولئك حقّاً هم الأشقياء، الذين امتلأت قلوبهم نقمةً وحقداً على الحياة، وأنا أريد أن أتحدث بمَعزل عنهم، أريد أن أتحدث عن هؤلاء الأبطال، الذين ما زادهم شعورهم بالنقص إلا قوةً ورضاً، وهم الذين يحوِّلون البيت الكئيب إلى بيت مفعم بالأمل والسرور، ويقلبون لحظات الحياة اليائسة إلى عمرٍ هنيءٍ سعيد، إنهم عقلاء الناس.

إنّهم آمنوا بأنّ وراءَ كل محنةٍ منحةً، وبعد كل ليل مظلم فجراً

وضّاءً، آمنوا بأن: ما من نازلةٍ نزلت بهم إلّا من ورائها حكمةٌ ـ قد تُدْرَكُ أو لا تُدْرَكُ ـ قدّرها العليم الحكيم، الذي قال في محكم التنزيل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

اعلم: أن من المنع عطاءً، ورُبَّ ضارةٍ نافعة، وأن الحياة المتدفقة بالآلام والمتاعب هي الحياة التي تفتق المواهب وتصنع الرجال، وأن النوابغ الذين شهد التاريخ بإنجازاتهم، وسطرت كُتُب الزمان في ذاكرتِها أسماءَهم، لم يصعدوا إلى ذُرَى المجدِ إلّا بدافعِ شعورهم بالتغلب على النقص.

أجل، إنّ الشعور بالنقص هو الذي يدفع الإنسانَ إلى مواجهة التحديات، ويمدّه بجرعات مِنَ الصمود والثبات، إلى أن ينجح وينتصر، إنّ الشعور بالنقص هو الذي يجعل صاحبه يندفع في تيار الحياة بكل عزيمةٍ وإصرار، فلا ينظر إلى النقص بعين الثكلى النائحة، بل ينظر إليه بعين المتأمِّل الجسور، الذي يرى فيه شعلةً من نور، تبدّد له ظلام الطريق، وتبصّره بأحلامه وآماله.

إنّ هؤلاء الذين فقدوا حاسةً من حواسّهم، أو عضواً من أعضائهم، هم أكثرُ الناس انتباهاً وإحساساً بنقصهم، منهم من يتسلح بنقصه كسيفٍ يشقّ به طريق الحياة، فينجز ما عجز عن إنجازه أولئك الذين يتوهّمون الكمال، هم كما قيل: «كل ذي عاهةٍ جبار» ـ أي لكل صاحب عاهة ميزة يتميز بها عن غيره، أي: إذا نقص في جزء عُوّض في الجزء الآخر؛ ونحن ننظر في جانب النقص، ولا ننظر في زاويةٍ أخرى يتميز بها ويتفوق، فـ (تيمورلنك) اكتسحَ العالم وهو أعرج، و(بيتهوفن) أطرب العالم بجمال ألحانه وهو أصم، و(ملتون) الشاعر المبدع كان أعمى، وغيرهم كثير.

كان الخطيب (كرّان الإيرلندي) قليل الإفصاح، حتى لقّب ـ وهو طالب في المدرسة ـ بالألكن، والذي جعل منه محامياً وخطيباً مصقعاً، هو هذا الموقف: دَخَل مرةً بعضَ المجامع العلمية، وجاءَ دورهُ للمناظرة، فقام، ولكن لم يتمكن من التكلم، فقام خصمه ودعاه باسم: الخطيب الأخرس، فأثّر فيه هذا التهكم والاستهزاء، فقامَ ودافع عن نفسه بكلامٍ غاية في الفصاحة، حتى أذهلَ الجمهور الحاضر، ولما رأى من نفسه ذلك تقوّى عزمه حتى قرأ بصوتٍ عال أبلغَ الكتابات ساعاتٍ عديدة[١].

ليس كلٌّ واحد يستطيع أن يحول نقصه إلى حظّ بَاسِمٍ زاهر، فالسّاخطون العاشقون للشكوى والأنين هم أفشل الناس في إسعاد أنفسهم، أما أصحاب اليقين والرضا، فهم الذين يصافحون الحياة بابتسام قبل أن تلقاهم بوجهها المكْفهرّ الكئيب.

وهنا أسوق لك مثالين لرجلين، علم كل منهما أنه سيبقى عمره مكفوفَ البصر محبوساً عن رؤية ضوء الحياة، الرجل الأول هو ابن عباس رضي الله عنهما، عندما فقد عينيه قال:

إن يأخذِ اللَّه من عينيَّ نورَهما ففي لساني وسمعي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دَخَلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيفِ مأثورُ

إنه الرضا المطلق والقَبول المحمود، فهو لم يتحول إلى إنسانٍ مهزوم، ينزف جُرحه ويندب حظّه، ولم يكن كالرجل الثاني (صالح بن عبد القدوس)، عندما عمي، فقد وَلْوَلَ بصوت ساخطٍ مجنون:

على الدنيا السلام، فما لشيخٍ ضريرِ العينِ في الدنيا نصيبُ

---

(١) سر النجاح، لصموئيل صميلز، ص٣٠٢.

يموتُ المرءُ وهو يُعَدُّ حيّاً ويُخلف ظنَّه الأملُ الكذوبُ
إذا ما ماتَ بعضُكَ فابكِ بعضاً فإنّ البعضَ من بعضٍ قريبُ

أرأيت إلى كِبَرِ هذا الفارق بين رجلين شعرَ كلٌّ منهما بنقصٍ واحد، إلّا أنّ هذا الشعور جعلَ الأوّل راضياً شجاعاً، وجعل الآخر شاكياً يائساً.

وبالجملة إنّ الشعورَ بالنقص يجعل صاحبه أحدَ أربعةِ رجال:

١ ـ إمّا أنْ يحوله إلى رجلٍ لاعبٍ لاه، يرى في نقصه فرصةً للغفلة واللّامبالاة، ويظن بذلك أنه منتصر، إذِ استطاع أنْ يتناسى شعوراً بالنقص كان يلاحقه بكل ذُلٍّ وامتهان. . فهذا مضيعٌ للوقت أحمق.

٢ ـ وإما أن يحوله إلى رجلٍ مقدام، يتقدم في فجاج الحياة العصيبة، مجابهاً صعابها وتحدياتها، صاعداً سلّمها، طامحاً إلى المجد، يسير بثقة لا تضاهيها ثقة، وبعزيمةٍ تخور أمامها الجبال الراسيات، فهذا عاقل حكيم. . نِعْم الرجل هو.

٣ ـ وإما أنْ يحوله إلى إنسانٍ غايةٍ في اليأس والتذمر، فضّل الانعزال والركون في البيت على الاختلاط والاحتكاك بالناس، فمات وهو على وجه الأرض، حتى قال الشاعر فيه:

ومن يراني يرى عَبرى مفجَّعةً طويلة الحزن في زوّار أموات

٤ ـ وإما أن يحوله إلى رجلٍ ذي جَلَدٍ وعزيمة، ولكنه رجلٌ لا تحبه، فقد استعمل شعورَ نقصه سلاحاً لم يجابهْ به التحدّيات، ولم يقاتلْ به أعداءه، بل استعمله ليحارب به القضاءَ والقدر، استعمله ليعلنَ أنّه مخلوق ناقص معذب، وكأنه يريد أن يقول للناس: إن الله قد سلبه ما سلبه عن ظلم منه، وأنه مع هذا سيثبت أنه أفضل من الذين

يتوهمون الكمال، فمثل هذا الرجل تأخذه العزة بالإثم، ويخسر نفسه وهو مكابر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

هذا الصنف هو الصنف الأخطر في حياة البشرية، أصحابه يسيرون بجَلَد وهمة تعجز عنها إرادات أناس كثر، ولكنَّهم يسعون بكل عناد ومكابرة ليذاع اسمهم وينتشر صيتهم، فهم في ظاهرهم رجال يتحدّون الحياة ويهزمونها أمامهم، أما في الحقيقة، فهم أرقامٌ بائسة، يهزها السّخط والنقمة في صميمها، فهؤلاء شر الخلق، وإن لمعَ بعضهم في الطب، أو العلم، أو الأدب، وإن نال جائزة نوبل، وإن نفعوا الآخرين، فقد ضرُّوا أنفسهم، وإن أضحكوا الآخرين فقد أبكَوا أنفسهم، فهم الذين قيل فيهم:

وأسعدتَ الكثيرَ وأنت تشقى وأضحكتَ الأنامَ وأنت تبكي

❋ ❋ ❋

بين الرضا والسخط

دونك هذين المثالين، قِسْ ما بينهما من فرق ثم اعتبر:

المثال الأول: ليعقوب عليه السلام، عندما جاءَه بنوه يتباكَون على فَقْدِ أخيهم يوسف، زاعمين أنّ الذئب أكله، ماذا قال لهم؟ قال كلمةً تزن الأرضين والسموات ذهباً لو وُزِنَتْ بميزان، قال كما جاء في محكم التنزيل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم مرّت السنون، وبدلاً من أن يعود ابنه المنتظرُ، يفقد ابنه الآخر، فماذا سيقول الآن؟.. هل سيُجن ويهيم في فلواتِ الأرض!!.. إنه يعود مرةً أخرى ليسجّلَ كلمةً أثقلَ في وزنها من سابقتها، يقول كما جاء في محكم التنزيل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، إنّه لم ييئس، ولم تنطفئ شعلة الأمل في قلبه، بل على العكس، أرسل إلينا عبر التاريخ تراتيلَ لنغمٍ بُطُوْلِيٍّ، يستحقّ أن يكون أسوةً حسنةً، نتعلّم منها الصمود في وجه عواصف الحياة القوية.

أما المثال الآخر: فهو لشاعر عباسيّ (ابن الرومي)، استبدَّ به الجزع، عندما فقد ابنه، فأخذ يرثيه قائلاً:

وأولادنا مثل الجوارحِ أيّها فقدناه كانَ الفاجعَ البينَ الفقد!!

هل السمعُ بعد العين يغني مكانها أو العينُ بعد السمع تَهدي كما يَهدي

مشاعرُ من الأسى تتقاذفه، فينهارُ الرجل، ويرسل هذه الصيحة المجنونة:

وما سرّني لو بعته بثوابهِ ولو أنّه التخليدُ في جَنّة الخلد!!

ما قيمة هذا العويل والسخط؟ وما أثره في العاجل والآجل؟ لا شيء إلّا الحسرة، وكأن الرجل المكلوم لم يسمع بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].. وبحديث رسول الله ﷺ: «**واعلم أنّ ما أصابَك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**» [الحاكم (٦٣٦٥)].

الساخط هو الذي فشل مرةً أمام عواصف الحياة خارجَ كيانه، وفشلَ مرةً أخرى أمام أعصابه داخل كيانه، فالأعصاب التي تتخلل أجسام الساخطين أقسى من أن ترحمهم، وألأم من أن تغفر لهم، فهي تحرق قلوبَهم كما تحرق أسلاك الكهرباء جدرانها التي تتخللها، إذا ما تعرّضت لتوتر عال، يقول الكاتب (وليم جايمس): إنّ الله يغفر لنا خطايانا، لكن جهازنا العصبي لا يفعل ذلك أبداً!..

لذا تجد أن أمراض (السكر والضغط وقِرَح المعدة) أول ما تصيب تصيب هؤلاء الساخطين على الحياة، الذين تبرموا بها، ولم يستسلموا لقضاء الله وقدره، ولو أنّهم رضوا واعتصموا بحبلِ خالقهم، لأمدّهم بقوةٍ تجعل الأعصاب هادئة لا ثورَة فيها، وتجعلِ العقول حكيمة، لا صرعَ فيها ولا خَبَل، وليتهم استمعوا إلى هذا الشاعر الذي يخاطب كلَّ واحد فيهم:

كفكفْ دموعَك ليس ينـ ـفعك البكاءُ ولا العويل

وانهضْ ولا تشكُ الزما نَ، فما شكا إلّا الكسول

مـا ضـلَّ ذو أمـلٍ سـعـى يـومـاً، وحـكـمـتـه الـدلـيـل
كـلا ولا خـابَ امـرؤٌ يـومـاً، ومـقـصـده نـبـيـل
أفـنـيـت يـا مـسـكـيـن عـمـرك بـالـتـأوّه والـحـزَن
وقـعـدتَ مـكـتـوفَ الـيـديـن تـقـول حـاربَـنـي الـزمـن
مـا لـم تـقـم بـالـعِـبءِ أنـت، فـمـن يـقـوم بـه إذن؟

لا تضيّع وقتك مع هؤلاء الساخطين، فهم أصحابُ الأراجيف والإشاعات، فإذا ما أخفق أمامهم أمل، حملوا على الحياة بكل ما بوسعهم من نقمةً، وإذا ما رأوا أحدَ المتدينين، وقد شَرَد شردَةً، أو طرفت عينه إلى مرأى مأمور بأن يغضّ عنه البصر، أو زلقَ لسانُه بكلمةٍ لم يلقِ لها بالاً، امتلأَتْ أفواههم تبجُّحاً وتهويلاً، حتى يكاد الذي يسمعهم يصدق أن أولئك المتدينين لعنة على الدين نفسه، ثم لا يتحرَّج يحكم على الدين نفسه بخطأ أبنائه وأدعيائه.

إنه السخط، مصيدة الشيطان، يصيد بها ضعفاء الإرادات من الناس فيوسوس لهم: لِمَ هذا؟ ولو كان كذا؟ ولماذا فعل ذلك الفعل؟ ولماذا قال كذا ولم يقل كذا؟ إنها حبال إبليس، يصفّد بها مَنْ رأى الرزقَ ناقصاً، والحظّ سيئاً والعطاءَ زهيداً، من قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٨].

إياك أن تجالسَ هؤلاء المتأفِّفين الناقمين، فهم مرضٌ مُعدٍ، فابتعدْ عنهم، لأنهم يعظّمون الصغائر، ويهولون الأقوال، ولا يثقون بأنفسهم ولا بأحد من الناس، هم أهل الشكوى والتذمر، قال فيهم الشاعر:

كـم تـشـتـكـي وتـقـول إنّـك مـعـدَمُ والأرضُ ملكُكَ والسما والأنجمُ؟
ولـك الـحـقـولُ وزهـرُهـا وأريـجُـهـا ونـسـيـمُـهـا والـبـلـبـلُ الـمـتـرنّـمُ

والـمـاءُ حـولـك فـضـةٌ رقـراقـةٌ والـشـمـس فـوقـك عـسـجـدٌ يـتـضـرَّمُ
هـشّـت لـك الـدنـيـا فـمـا لـك واجـمـاً وتـبـسّـمـت فـعـلامَ لا تـتـبـسـمُ؟

الراضون هم الناجحون في الحياة، هم السعداء الأغنياء، قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ سعادةِ ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركُه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له**» [الترمذي (٢٠٧٧)]، وقال ﷺ في حديث آخر: «**ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**» [الترمذي (٢٢٢٧)].

هم الذين لا يخاصمون ربّهم، لأنهم يعلمون أنّه معبود بحق، وأنه خالقهم ورازقهم، ويعلمون ألّا فائدة مِنَ السخط والنقمة، وأنّ القضاءَ والقدر قد فرغ منهما، والمقادير مكتوبة، قال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**» [مسلم (٦٩١٩)]، وقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة جفّ القلم بما أنت لاقٍ**» [البخاري (٤٧٨٨)].

هم الذين يقرؤون في المصائب التي يمرون بها قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

يبتغون رضا الله، ولا شيء غيره، ولو تعارض رضاه ورضا الناس قدّموا رضاه من غير تردد، قال ﷺ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاهُ الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَه الله إلى الناس**» [الترمذي (٢٣٣٨)].

أخيراً استمع إلى نبضات هذا القلب وهو يقول:

فـلـيـتـك تـحـلـو والـحـيـاة مـريـرةٌ ولـيـتـك تـرضـى والأنـام غـضـابُ
إذا صـحّ مـنـك الـودّ فـالـكـلُّ هـيّـنٌ وكـلُّ الـذي فـوقَ الـتـراب تـرابُ

ثلاث خطوات لا يقدر عليها الجبان

ما أكثر الذين يقفون أمام مسألة حسابية فيحلونها، وما أقل الذين يقفون أمام مشكلةٍ تواجههم فيعجزون عن حلّها.

قبل أن أشرح لك الخطوات الثلاث التي ينبغي أن يخطوها الشجاع في كل قراراته لا بد أن ألفت انتباهك إلى هذه **المقدمة**:

كثيراً ما تسمع هذا النصح: على الإنسان أن يقوده عقله لا قلبه حتى ينجح، والحقيقة أنّ لكلٍّ من العقل والقلب سلطانه على حياة الإنسان، والمشكلة تبدأ عندما يتعارض العقل بحكمته وحريته، والقلب بمحبته أو كراهيته، فالانفعالات النفسية أو الخلفيات العرفية قد تشط بالإنسان شططاً يبعده عن الحق ويقربه من الباطل، فهو لا يرى الحياة على حقيقتها، ولا يعيش الظروف بواقعها، فيلوّن سلوكه بمشاعره الخاصة، ويميل مع تصوراته الخاطئة، متوهماً أنه في المكان الصحيح.

مثل هذا الإنسان مثلُ ملايين الناس الذين يصدقون من فورهم كلَّ كلامٍ يوجه إلى من يكرهونه، ويكذبون من فورهم كل كلام يوجه إلى من يحبونه، وفي القديم قيل: (الحب والعمى رفيقان)، وكذلك: (الكره والعمى رفيقان)، ومن الصعوبة بمكان أن يتجرد الإنسان عن عصبيةٍ قد أثّرت في حياته، أو عرف سائدٍ قد اصطبغ به، أو تصورٍ خطأ قد انطبع في ذاكرته، مِثلُ هذا الإنسان لا يستطيع أبداً أن يحل المشكلات التي تواجهه، فيبقى حائراً شاكياً تعجزه صغائر الأمور كما قال الشاعر:

يهرولُ في الصغير إذا رآه وتُعجزُه ملمّات كبارُ
فمثل تأيُّم منه نكاحٌ ومثل تموُّلٍ منه افتقارُ

لِذا، أنصح الشباب بعد أن أنصح نفسي أن يوجّهوا عواطفهم بادئ ذي بدء إلى وجهة الحق الواضح، أن يوجهوها وجهةً تسرُّ الصديق، وتغيظ العدو، حتى إذا ما جاشت عواطفهم وقويت مشاعرهم، هانَ الأمر عليهم، لأنَّ الطريق طريق حق، والاتجاه صحيح، فلتفعل المشاعر فعلَها، ولتذرف العينُ دموعها طالما السبيل حق والهدف حق.

إنّ الحياةَ مَلْأى بالصعوبات والمشكلات التي لا يكاد يخلو منها يوم واحد، وكما قلت لك في البداية: إنّ معظم الناس لا يستطيعون أن يحلّوا أصغر مشكلاتهم، بسبب الصراع بين العقل والقلب من جهة، وبين العصبية والأهواء والحق من جهة ثانية، ولحل أي مشكلة لا بد من مراحل ثلاث على الإنسان الحر أن يجتازها:

المرحلة الأولى:

التفكير الهادئ المنطقي في ساعة صفاء، يحبس فيها صاحب المشكلة غضبَه وقلقه وأحزانه وراء قضبان الانتظار، ثم يحاول أن يضع المشكلة في ميزان مستقيم، لا يخضع لعصبية أو هوى، ولا يغفل عن الحق والمنطق.

المرحلة الثانية:

أن يربط الإنسان جأشه، ويضبط نفسه أمام هذا الميزان، فقد تكون المشكلة كبيرة وخطيرة، فلا يجزع ولا يضطرب، وإلّا فسينهار في الخطوة الثانية، ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ، عندما داهمته والمسلمين مشكلة عظيمة ـ هي معارضة قريش لدخولهم معتمرين إلى مكة ـ فكشرت

الحرب عن أنيابها، وكاد القتال ينشب،لولا إدراك النبي ﷺ خطر هذه المشكلة، فكظم حزنه وأمر أصحابه أن يقبلوا بالهدنة الشاقة عليهم، صوناً للدماء، ونشراً للأمان وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

هذه المرحلة تحتاج إلى رصانةٍ وسكينة وتريُّثٍ، فالذي يخطوها هو الذي ينتقي من الحلول أقربها للحق والحكمة، وإن كان هذا الحل مرّاً، فهو كالدواء المر الذي يعقبه الشفاء، وإن أكثر الذين يخطون هذه الخطوة يتمتعون بثقة كبيرة بأنفسهم، هذه الثقة هي فرع من ثقة أصيلة، هي الثقة بالله تعالى، قرؤوها في آياتٍ كثيرة من قرآنه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

المرحلة الثالثة والأخيرة:

هي مرحلة تنفيذ القرار الذي انتهى إليه صاحبه بحزمٍ وقوة، فكم من ذكي فطنٍ، لا تخفى عليه الخوافي، لم ينفعه ذكاؤه، ولم تزحزحه فطنته من مكانه العالق فيه، فهو جبانٌ أمام اتخاذ القرار، محجمٌ مرتبك.

ما أسخف هذا الإحجام، عندما يعتري إنساناً تجاوز مرحلتين صعبتين قبله، ولم يبق أمامه إلّا أن يقرر.

إذا تجاوزت المرحلة الأولى والثانية، وقد عرفت مشكلتك، ووزنتها بميزان عادل، ثم تبينت الحلول بفكر هادئ حكيم، فَلِمَ لا تتخذِ القرارَ الذي وصلْتَ إليه متوكِّلاً على الله؟!.

اتخذ قرارك، ولا تنظر إلى الوراء، وصمّ أذنيك عن عتاب المراحل السابقة واستمع إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا عزمت فاقهر التردد والخوف، ولا تنصت إلى حيفِ القاعدين، وأراجيف الجبناء الخائفين.

يقول (ديل كارنيجي)[١]: سألت (وايت فلبس) أحد رجال الأعمال البارزين: كيف كنت تنفذ قراراتك؟ فأجاب: لقد وجدت أنّ التفكير المستمر في مشكلة ما إلى أبعد من مدى معين يخلّف القلق، ويولد الاضطراب، فإنه يأتي وقتٌ تصبح فيه المداومةُ على التفكير ضرراً يجب اجتنابه، فمتى اتخذتُ قراراً عمدْتُ إلى تنفيذه من دون أن أتطلع البتة إلى الوراء.

وقديماً قال الشاعر العربي:

إذا كنتَ ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فسادَ الرأي أن تتردَّدا

إنّ الوصول إلى قمة المجد يبقى حلماً عذباً في نفوس الحالمين، ولا يتحول إلى حقيقة حية إلّا إذا قرر الحالم الشجاع أن يصعد إلى القمة.

❁ ❁ ❁

(١) كيف تتخلص من القلق وتبدأ حياتك، ص٧٢ ـ ٧٣.

ثمار الكتاب

بعدما أينعت ثمار هذا الكتاب أمام ناظريك، وأنت تقرؤه وتعزم في نفسك على أن تنفذ ما فيه، فإياك أن تترك تلك الثمار تذبل وتموت على أغصانها، وما عليك ـ بعد أن استوت على عودها ـ إلا أن تتقدم إليها وتقطفها، ثم تتفكه بها، وتستلذ بطعمها، لكن إياك أن تنسى طعم هذه الثمار، تذكر هذا الطعم طوال حياتك، وحتى لا تنساه، تذكر معي:

١ ـ إن داءَ اليأس لا يدخل إلّا إلى القلوب الميتة، ولا يعيش إلّا على أنقاض النفوس المحطمة، فلا تكن ملاذاً له، وابْنِ قلباً حيّاً ينبض بالإيمان والأمل، ونفساً تتغلب على صعاب الحياة بالثبات وصالح العمل.

٢ ـ لن تعيش في هذه الدنيا إلّا مرةً واحدة، واليومُ الذي مرّ بك أبداً لن يتكرر، وليس لك إلّا الساعة التي أنت فيها، وصدق من قال فيك:

وما لي بعد هذا العيش عيشٌ ... وما لي بعد هذا الرأس راسُ

٣ ـ الحياةُ لنا كلّها، فلماذا لا نعيش فيها لحظةً فلحظة؟ لماذا نجلُّ ألَمها ومرارتها، ونبخس فرحها وبهجتها حقّهما؟ لماذا تطول شكوانا ويقول القائل فينا:

كلُّ من لاقيت يشكو دهرَه ... ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

٤ ـ عش حياتك أملاً نحو الحق، وسلّماً نحو التحديات، ولا تقعد مع

الذين رضوا بالقعود، وتجشم صعودَ الجبل، فالموت على ظهره من عناء الصعود خيرٌ من الحياة الخسيسة على حافات المستنقع النتن.

٥ ـ كن كتلك البذرة التي تحدّت الرغام الذي طمرها، فاخترقته بكل ثقة لتصافح وجه الشمس، زهرةً بهيجةً، تعالت على الماء الآسن والحمأ المسنون.

٦ ـ إنّ الوسائل التي بها تحقق آمالك، هي نفسك ووقتك وحريتك، هباتٌ وهبك الله إياها، يهون أمامها الصعب، ويلين معها الحديد لو اغتنمتها.

٧ ـ ما قيمة الحدائق البهيجة والأنهار النميرة، إنْ لم تستمتع بها العيون، وتقرأ في صفحتها كلامَ السائرين من غير ملل أو كلل؟! ما قيمتها إنْ لم تبتسم لها الشفاه، وتردد مع بلابلها أنشودة الخطا والمسير؟!..

٨ ـ مثل الذي يسترجع الماضي، كمثل الذي يحفر القبور ليُخرج أهلها، ويتوسل إلى الشمس أن تبقى في كبد السماء ولا تغيب، ويدفع مياه النهر بيديه لتعود إلى منبعها.

٩ ـ إن بقاءَك مطرِقاً متحسراً أمام لبن الماضي المراق، إشعارٌ بالألم والحيف ومدعاة للتشاؤم والإحباط، وتقييد بسلاسلَ غلاظ في زمن يتحرك فوق عجلات تسير.

١٠ ـ ما قيمة أن نتأوه بـ (لو وليت ولولا)، فنجتر أحداثاً قد مرّت وانقضت، وأكل عليها الزمان وشرب.

١١ ـ لا تحرق أعصابك ولا تضيّع وقتك، وأنت تندب حظّك، وتبعث آهاتك على أطلال ماضٍ قد اندرس، بل استأنف رحلتك مهما

واجهت من عناء وصعوبة، وانطلق بنفس مفعمة بالأمل والتفاؤل، من دون أن تلتفت إلى الوراء وتقول: (لو، ليت، لولا).

١٢ ـ ما أعجب رحمة مولاك!.. فهو كاشفك ورقيبك ويعلم خائنة عيونك وما يخفي صدرك، ثم تتوب إليه، فيتوب عليك، في حين أنّ ذنباً واحداً قد تخفيه ولا تخبر به أحداً، قد يزعزع مودَّة ما بينك وبين أقرب الناس إليك، ويسقطك من عينه لو علم به.

١٣ ـ إنّ توبتك حياةٌ نهضت بعد موت، نهضت لتغير معالم النفس، وتنير مصابيح الإيمان، إنّ توبتك فجرٌ صادق، ترك خلفه ليل الهزيمة، وأشرق بنهار النصر والنجاح.

١٤ ـ الإنسان الفارغ الكسول عالةٌ على الحياة ذاتها، فلا رصيد له فيها، تموت آماله أمامه وهو يرمقها بعين الندامة والحسرة.

١٥ ـ أترضى أن تدفن نفسك في أرض الخمول، وينظر الناس إليك بعين السفالة والصَّغار، وغيرك يصعد إلى المجد بكل عزم وهمة؟!.

١٦ ـ (سوف)، هذا الحرف يمنّي قائله، ثم يخذله ويجلب له الأسى، فهو كالظمآن الذي لاح له من بعد ـ في صحراء كاوية ـ ماءٌ يتلألأ، كلما تقدم إليه ليرتشف منه شربة، ابتعد عنه وتركه في حرقة، ثم بعد حين اكتشف أنه كانَ مخدوعاً، وأن الذي رآه هو سراب لا حقيقة له.

١٧ ـ ألا يحزنك أن ترى كتلاً من المسلمين، أقعدهم الركود والتواكل عن وظائفهم وأهدافهم التي أناطها بهم الإسلام، وترى أعداءهم يمخرون عباب الحياة بكل دأب وجلد؟!.

١٨ ـ إن كلمة حنان يطلقها أبٌ ليجبر كسرَ خاطر ابنه أو ابنته تعادل ما في هذا العالم من كنوز ثمينة أو قصور عالية.

١٩ ـ إنّ ابتسامة تشرق من شفاه أحد الزوجين، تعادل انتصاراً ساحقاً لجيش جرار، وإن عبسةً لئيمةً تعادل ما يلاقيه هذا الجيش من توبيخ وسخرية من كل الذين يمر بهم، وهو عائد يجر ذيول الهزيمة.

٢٠ ـ إنّ البيت الذي يحيا بالإنسانية والرحمة لهو بيتٌ قويُّ البنيان، لا تؤثر فيه عواصف المغريات، ولا تخدشه قذائف أولئك الذين تعوّدوا أن يشتروا الإنسان المحطم، ليستغلوهُ ثم يرموهُ.

٢١ ـ الإيمان، هو دواء الروح المعذبة، الروح التي تسوق صاحبها كأحمق مخلوق، وأيئس إنسان إلى مسلاخ الانتحار.

قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**».

٢٢ ـ إن قدرتك على العيش في حدود الزمان الذي يمر بك، وحدود المكان الذي أنت فيه، هو سر نجاحك في الحياة.

٢٣ ـ أكثر المحزونين هم الذين أعطوا الحياة الدنيا قيمةً أكبر من قيمتها فكانت موضع اهتمامهم، حاولوا أن يحوّلوا نارها إلى جنة الخلد، وجحيمها إلى نعيمٍ دائم، لكنهم عادوا بخُفّي حنين.

٢٤ ـ السعيد من يأخذ من وجه الدنيا الكظيم ابتسامةً عريضة، ويبصر في عيونها الخائنة أمل الدنيا والآخرة.

٢٥ ـ إن إحسانك إلى الناس يشق لك طريقاً إلى السعادة التي تنشدها فيفرج عنك الكروب القابضة، ويبرد لظى مشاعرك الحارقة، إنه الشعور بالراحة النفسية، إنه شعور العطاء بعد الأخذ الكثير.

٢٦ ـ الدعاء هو السر الذي اعتلى به درجات المجد من اعتلى، ونال ما تمنى واشتهى.

٢٧ ـ الاستغفار هو العلاج الناجع لكل ما يقف أمامنا ويسدُّ في وجوهنا.

٢٨ ـ بالابتسام تزول من الصدور الآهات والأكدار، وتصح الأجسام من العلل والأسقام، هو أغنية الروح المعذّبة، وإشراقة العين الدامعة.

٢٩ ـ كن كما أنت، أضف إلى حياتك ابتسامة واغمر قلبك بالبهجة والفرحة ولا تلتفت إلى أولئك العابسين المعقدين، وتأسّ بسيد الخلق الذي قال عنه الصحابي عبد الله بن الحارث: «ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ».

٣٠ ـ الابتسامة هي ترجمة لصدر رحب، وخلق سمح، بها تفتح أقفال القلوب، وبها تشق من الطرق ما لا تقدر عليه السهام والسيوف.

٣١ ـ إنّ العمر الذي يسير على نسقٍ واحد، هو عمر ميت، لا طائل منه، يعيش صاحبه مسجوناً في (روتينه)، مالّاً لمكانه وزمانه.

٣٢ ـ أنت الذي تلون حياتك بمنظارك الخاص، فإذا استجلبت فكراً خبيثاً أسودَ فلا بد أن يشقيك هذا الفكر ويجعلك تعيساً بائساً، وإن استجلبت فكراً صالحاً نيّراً فسيحولك إلى إنسانٍ سعيد وديع.

٣٣ ـ صدق الذي قال: «نبّئني ما يدور في ذهن الرجل أنبئك أي رجلٍ هو».

٣٤ ـ مظلة الدين هي المظلة الوحيدة التي تستطيع أن تتحكم بأفكارك في ظلها، وهي المظلة التي تترك لك الخيار، فتصفِّي أفكارك من الرديء منها وتبقي على الصافي والجميل.

٣٥ ـ حتى تصفو نفسك ويروق مزاجك، لا بد أن تهتم بظاهرك، فالثوب النظيف، والشعر المسرّح، والزيّ الأنيق: مفاتيح لنفسية جديدة،

يشعر معها صاحبها أنه ولد من جديد، وأنه يستطيع أن يبدأ حياته من جديد.

٣٦ ـ إن تغيير المكان والتنقل في الديار ومعرفة الوجوه الجديدة، ذلك كله يبعث السعادة في نفس الإنسان، فيداوي جروح ماضيه الأليم، ويحل مشكلات حاضره المعقّد.

٣٧ ـ إنّ جولةً في بستانٍ وارف الظلال، تتمايل على جنباته أزهارٌ متنوعة بهية، قد يصفي ذهنك، ويغير مجرى حياتك، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا. . .﴾ [العنكبوت: ٢٠].

٣٨ ـ إنّ ممارسة نوعٍ واحدٍ من الرياضة قد تقي الإنسان من أمراضٍ كثيرة، لا تنفع معها (صيدلية) عقاقير.

٣٩ ـ ابتعد عن الذين يحبطون عزيمتك، ويفتّرون إصرارك، فهم أعداؤك فاحذرهم، هم الحاسدون الحاقدون، الذين يبخسون الناسَ أشياءهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

٤٠ ـ تعلّم كيف تكون في مجتمعك عضواً مشجعاً نافعاً، لا محبطاً ضارّاً ولا مشلولاً مهملاً.

٤١ ـ عندما تؤمن بالله، تهون عليك المصائب، وتفرج عنك الكروب، ويزول أساك وحزنك.

٤٢ ـ المؤمن لا ييئس إن منعه الناس، ولا يجزع إن خانوه، لأنه يعتمد على مسبب الأسباب ومدبر الأمور، ولسان حاله يقول:

واشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركانُ

٤٣ ـ يقول الكاتب الأميركي (ر. ن. س. بودلي): إنني بعد انقضاء سبعة

عشر عاماً على مغادرتي الصحراء لا أزال أتّخذ موقف العرب حيالَ قضاء الله وقدره، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكّنات والعقاقير.

٤٤ ـ إنّ الشعور بالنقص هو الذي يدفع الإنسان إلى مواجهة التحديات، ويمدّه بجرعات من الصمود والثبات، إلى أن ينجح وينتصر.

٤٥ ـ الساخط هو الذي فشل مرةً أمام عواصف الحياة خارج كيانه، وفشل مرةً أخرى أمام أعصابه داخل كيانه.

كم تشتكي وتقول إنك معدمُ
والأرض ملكك والسما والأنجمُ؟
ولك الحقول وزهرها وأريجها
ونسيمها والبلبل المترنمُ
والماء حولك فضة رقراقة
والشمس فوقك عسجد يتضرمُ
هشت لك الدنيا فما بالك واجماً
وتبسمت فعلام لا تتبسَّم؟

٤٦ ـ اتخذ قرارك ولا تنظر إلى الوراء، وصم أُذنيك عن عتاب العاتبين ولوم اللائمين، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٤٧ ـ إذا عزمت، فاقهر التردد والخوف، ولا تنصت إلى حيف القاعدين، وأراجيف الجبناء الخائفين.

❁ ❁ ❁

خاتمة

الحمد لله، الولي النصير، اللطيف السِّتير، والصلاة والسلام على رسول الله الصادق الأمين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: الآن انتهيت من قراءة هذا الكتاب، فحسبك هذا السؤال الذي يطرح نفسه: هل استفدت مما قرأت؟.. ليكن هذا السؤال أول ما تفكر فيه الآن، قبل أن تلتفت إلى كاتب هذا الكتاب بالمدح أو الذم، فإنّ وقتك الذي أنفقته بالقراءة حريّ بأن يستوقفك عند هذا السؤال.

ثم، إن كان الجواب (نعم)، فاعلم أن الله قد منّ عليك بأن بصّرك طريقاً تنتقل فيه من ليلِ بؤسك المظلم إلى نور سعادةٍ كنت تنشدها وتحلم بها.

ثم عليك أن تسأل نفسك ثانياً: ما الخطوات التي سأخطوها لكي أسير فعلاً في هذا الطريق؟.. إنها الخطوات ذاتها التي قرأتها في الكتاب، إلّا أنّ قراءتك لها كانت قراءةً نظرية، أما الآن فلا بد أن تترجم هذه القراءة إلى خطوات واقعية عملية، فمثلاً:

- عندما يحاول الماضي أن يجذبك إليه، ما عليك إلا أن تأبى وتخذله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.
- وعندما يأخذ المستقبل بيديك ويشدّك إليه بقوة، فتفلّت من قبضته، وسِر بحريتك دون أن تدعه يعثّر مسيرك.

- وعندما تشعر بضيق في صدرك عليك أن تنفذ ما قرأته من حلول، فتسعى إلى الدعاء والاستغفار والإحسان.
- وعندما يخيّم عليك وعلى أسرتك صمتٌ يائس قاتل، عليك أن تبدده بقلبٍ مؤمن ووجه باسم.
- وعندما تتخذ قراراً بعد تريثٍ واستشارة، ما عليك إلّا أن تنفذه من دون خوف وتردد، وأن تصم أذنيك عن كلام القاعدين والخائفين...

هكذا نتعلم كيف نستفيد، وإلا فما قيمة أن نقرأ خزانات من الكتب، ثم يبقى ما قرأناه حبيس الغُلف لا يتسلل منه إلى الواقع شيء.

إنّ من الحماقة بمكان أن يقرأ القارئ ليقال عنه: (مثقف)، ثمَّ يتبجح بما قرأه ويجادل، وكأنه كان يقرأ للناس وليس لنفسه، فهو كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥].

إذا نظرت إلى المرآة، فأبصر نفسك وحسب، ولا تبصر أحداً سواك، فنفسك أولى بالإسعاد من أي نفسٍ أخرى، ودعك من أولئك المغفلين الذين يمدحون من يحرق نفسه من أجل الناس، فالبطولة أن تكون قنديلاً تضيء لنفسك وللآخرين، لا أن تكون شمعة تُسعد بحريقك الآخرين.

إنّ الذي يعود إلى بيته بعد رحلة ممتعة، قضاها بين الأزهار والأطيار وتعلل بنسيم الأوديةِ والشطآن، لا بد أن يحدّث أهله عن المناظر الخلّابة التي انطبعت بمخيلته، وعن المواقف التي تركت أثرها في نفسه، ما أكثر الذين يسيحون ويتنقلون! وما أقل الذين يتعلمون من رحلاتهم دروساً عملية، ترافقهم بقية عمرهم!..

أما إن كان الجواب بـ (لا) ـ أي عن السؤال الآنف: هل استفدت مما قرأت؟ ـ فما عليك إذاً إلا أن تحرق صحائف هذا الكتاب، وتذر رمادها مع هبوب الريح، وأنا آسف ومتألم ـ عندئذ ـ لأنني حاولت أن أخرجك من شتاء أحزانك إلى ربيع آمالك، و لكنني لم أستطع، ولم يبق أمامك إلّا أن تحاول مرةً ثانية، وربما في كتابٍ آخر، عسى أن يرشدك إلى طريق الخلاص.

أخيراً: إن أثمر هذا الكتاب، وآتى أُكُلَه، فهو بفضل الله وتوفيقه، وإن كان البذرُ جافّاً لا خيرَ فيه، والتربة جيرية لا خصب فيها، فأستغفر الله العظيم، هذا من نفسي المذنبة المقصرة، وأسأله تعالى أن يصفح عني، ويرحم عَبرتي، ويقبل عملي، فهو خير مسؤول، والصلاة على الرسول وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❁ ❁ ❁

محتويات الكتاب

الفصل الرابع
ورود في بستان السعادة

الفصل الخامس
غيّـر حياتك

الفصل السادس
الناجحون في الحياة